

أريد لأطفالي أن يكونوا مبدعين

لا يشعر الإنسان اللامحدود أنه يرتبط مع الذين يشاركونه في حياته بعلاقة ملكية، ويعرف أن أفضل طريقة لتخسر أي شيء هي أن تحاول التثبت به بقوة، وأنه في الحقيقة لا يعرف الحسد، ولكنه يتبنى منحى تعاونياً في حل أي مشكلة، ولا تزعجه أي تسميات يلصقها الناس به أو بالآخرين، ويفهم الحقيقة في التناقضات الظاهرة، كما يفرض لنجاحات الآخرين، ويرفض لعبة المقارنة / التنافس رفضاً تاماً. لا يوجد لديه أبطال محدودون، ويؤمن أنه يوجد مقابل كل بطل مشهور ملايين الأبطال المغمورين، وهو يرى بطلاً في كل إنسان، إنه يعمل بجهد لتحقيق حلمه بدلاً من أن يعيش هذا الحلم من خلال خبرات الآخرين. وهو لا يعطي قيمة إيجابية للتطابق من أجل التتطبيق، إنه قادر على تجاوز العادات والتقاليد السخيفة بسهولة وهدوء ما أمكنه ذلك. وهو يتعامل مع الآخرين بنزاهة طفولية بريئة صافية، ويرخي العنان لخياله الإبداعي في أي أمر، ويتعامل مع كل شيء في الحياة من وجهة نظر إبداعية. إذا كنت لا ترى في أي وضع إلا ما يمكن أن يراه الآخرون، فيمكن أن يُقال إنك ضحية لثقافتك. إنشيا هايكاوا (S.I. Hayakawa, 1906-1992)، أكاديمي وسياسي كندي من أصل ياباني

إن التخيّل بداية الإبداع؛ فأنت تتخيّل ما ترغب فيه، وترغب فيما تخيلته، وفي النهاية ستجد ما ترغبه. جورج بيرنارد شو (George Bernard Shaw, 1856 - 1950)، مؤلف إيرلندي شهير

لقد كُتِبَ كثير عن الإبداع والأطفال، مع تأكيد خاص أن بعض الأطفال مبدعون وآخرين غير مبدعين، أما أنا فلي رأي مغاير بخصوص إبداع الأطفال؛ لأنني على يقين أن الأطفال جميعهم مبدعون، وأننا نشجع الإبداع الفطري أو نكبته من خلال الطرائق التي نتعامل بها معهم، ويمكن لهذا الإبداع أن يتفتح عند تحفيزه وتعزيزه. ومن المهم تنشئة الأطفال ليكونوا مبدعين إلى أقصى ما يستطيعون؛ لأن ذلك سوف يحدث فرقاً كبيراً في كيفية تعاملهم مع كل شيء يفعلونه في الحياة عندما يكبرون.

ما الإبداع لدى الأطفال؟

الإبداع يعني التّردّد، إنه يعني التعامل مع أيّ مشكلة في الحياة من منظور فريد، ويعني حرفياً: إضافة شيء جديد إلى الوجود. إنه ليس محصوراً في الهوايات الفنية أو الموسيقية، إذ يمكن أن تكون مبدعاً على نحو استثنائي، وتمارس في الوقت ذاته أيّ شيء يستهويك؛ فمثلاً يمكن أن يكون تحضير طبق خضراوات (سلطة)، أو تصليح دراجة هوائية، أو الشقبة في الهواء، أو النزول في بركة سباحة، أعمالاً إبداعية، لذلك فإنّ الأطفال الذين يُسمح لهم باستخدام تميّزهم وتفرّدهم يتصرفون في واقع الأمر بطريقة إبداعية. أما نقيض الإبداع فليس الآلية أو الغباء، بل الانصياع أو الخضوع، أو أن يكون الإنسان إمعة. إنّنا نكبت الإبداع عند الأطفال عندما نطلب إليهم أداء الأشياء بالطريقة التي تعلموا بها فقط، وأن يلونوا ضمن الخطوط المحددة دون استخدام خيالهم، وأن يقلدوا البالغين بدلاً من ابتكار طريقة خاصة بهم، أو أن يضعوا رؤوسهم بين الرؤوس ويفعلوا ما يؤمرون به. إنّ الأطفال جميعهم يتسمون بالتّردّد؛ فكلّ واحد منهم فريد بذاته، ولم يسبق في تاريخ كوكبنا أن أطلّ أحد قبله على هذا العالم ورأه تماماً مثلما يراه هو الآن.

أما معيار الإبداع فيكمن في الاستعداد والقدرة على الاستفادة من هذا التّردّد في مهام الحياة كلها، ولسوء الحظ أنّ الأطفال يتعرضون لضغوطات شديدة تؤدي إلى كبت الإبداع لديهم على الرغم من الادعاء بأنها تحفزه. ويقول رائد التطوير الذاتيّ، المؤلّف الأمريكي إيرل نايتنجيل (Earl Nightingale, 1921 / 1989):

«قد تكون تصرفات الطفل وأفعاله مبنية على افتراضات كاذبة؛ فالطريقة التي يُربّى بها الأطفال في البيت والمدرسة هي التي تعطيهم صورة مشوشة تماماً للحياة في المجتمعات الحرة. إنهم يتعلمون أن يكونوا حذرين وأن يتجنبوا الأخطار حتى لا يصابوا بأذى، وأن ينسجموا مع روح القطيع والأفكار السائدة، وأن يسيروا في الحياة على رؤوس أصابع أقدامهم بدلاً من الجري فيها والمرح في أرجائها. وفي المحصلة، فإنهم يجهلون ما ينتظرهم.»

وفي رأيي أنّ الأطفال الذين يربّون بطريقة تشجّع الإبداع الفطريّ هم الأطفال الذين يُسمح لهم التّصرّف بحريّة، ولا يجبرون على الانصياع، وعيش الحياة مثلما يعيشها الآخرون فقط. مثل هؤلاء الأطفال، يتعلّمون منذ البداية أنّ الانقياد والتّكيّف مع الحياة أهداف تافهة لا تستحق بذل جهد في سبيل تحقيقها، وأن لا بأس عليك من تحدّي السّلطة القائمة، وطرح تساؤلات، وتجربة طرائق جديدة لإنجاز الأعمال. وعلى الرغم من أنك نادراً ما تسمع أحد الآباء يقول: لا أريد لطفلي أن يكون

مبدعاً، فإن معظم تصرفات الآباء تدعم هذا الاتجاه؛ فأنت قد ترغب في أن يكون طفلك مبدعاً، ومع ذلك، فلربما كنت تكبت الوصول إلى هذا الهدف بإصرارك على التزام طفلك بما هو سائد في المجتمع، وتأدية ما يُنابذ بهم بالطريقة التي تتوقعها السلطات ذات الوصاية.

أما المكونات الدقيقة للإبداع فيصعب تحديدها، فقد بذل الخبراء جهوداً مضنية لتحديد معنى الإبداع بدقة، لكنهم لم يتوصلوا بعد إلى اتفاق عام على ذلك. ومع هذا، فإننا نستخدمه بإعجاب شديد. وبدوري، سوف أقدم رؤيتي لمكونات الإبداع، وهي لا تشبه أي شيء قد تكون قرأته في مراجع الطفولة والإبداع.

إنّ الهدف من تأليفي هذا الكتاب هو مساعدتك على تعزيز الإبداع عند الأطفال، من خلال عدم إخماد الشرر قبل أن تتاح لها فرصة إشعال وهج الإبداع في نفوسهم، لذلك أقترح أن تهتم كثيراً، وتتصرف بإيجابية لمساعدة أطفالك على التعبير عن رغباتهم الإبداعية الجامعة، بدلاً من تحويلهم إلى انقياديين، لذلك يتعين عليك وأنت تقرأ هذا الفصل، لاسيما الإستراتيجيات المقترحة لمساعدة أطفالك على تنمية ميولهم الإبداعية الغريزية، أن تتذكر كلمات رالف والدو إيمرسون (Ralph Waldo Emerson. 1803 – 1882)، أحد أشهر الفلاسفة والشعراء الأمريكيين: «يتوصل كل إنسان في مرحلة ما من مراحل تعليمه إلى قناعة مفادها أنّ الحسد جهل، وأنّ التقليد انتحار، وعلى كل من يريد أن يكون إنساناً ألا يكون إمعة».

ولا شك في قوة هذه الكلمات، وهي من صميم معنى أن يكون شخص ما مبدعاً. وما أعنيه بالشخص المبدع بدقة هو: «الحرية في تطبيق تفرده على أفكاره وأفعاله جميعها ما دام أنها لم تتعارض مع حقّ أيّ شخص آخر في التصرف ذاته». ويمكن أن يحظى الأطفال بهذه الفرصة الرائعة في كلّ يوم من أيام حياتهم، أو أنهم قد يسعون إلى المطابقة وتقليد الآخرين وأداء ما يؤمرون به، لذا فإنّ أسلوبنا في الحياة، سواء كان إبداعياً أو انقيادياً، يعتمد على ما نعزّزه ونسمح به، وهذا ما تتناوله المكونات الرئيسة السبعة الآتية للمنحى الإبداعيّ لتنشئة الأطفال:

1. **الشعور بالاستقلالية:** تتضمن العملية الإبداعية إضافة شيء جديد إلى الوجود، أو التعامل مع مشكلة ما من منظور جديد. وحتى يستطيع الأطفال أن يبدعوا يجب أن يكون لديهم شعور قوي بالاستقلالية. ويتعين عليهم معرفة أنّهم غير مطلوب إليهم تلبية رغباتك ولا رغبات أيّ شخص آخر ليتمكنوا من إنجاز الأشياء الموكولة إليهم، فإذا كنت تربّي

الأطفال ليظلوا متكئين عليك، وانتظار موافقتك، والحصول على إذن منك، أو الالتزام بالقوانين، واتخاذ الطريقة التي تقرضها عليهم، فأنت بذلك تقضي على ميلهم الإبداعي. ومع هذا، فإنّ تشجيع الاستقلالية لا يعني التسامح مع الاستهتار، وعدم تحمّل المسؤولية، بل يعني ببساطة معاملة الأطفال على أنهم متفرّدون ومتميّزون، وكذلك تشجيعهم على البحث عن طرائق خاصة بهم للتعامل مع كلّ شأن في الحياة قدر الإمكان. أما الأطفال الدارجون، فإنّ تعزيز الاستقلالية لديهم يعني السّماح لهم بصنع لعبهم، وممارسة ألعابهم دون تدخل منك. في حين يعني تعزيز الاستقلالية لمن هم تحت سن المراهقة السّماح لهم بكتابة قصصهم في المدرسة، واختيار أصدقائهم بأنفسهم. أمّا من هم في مرحلة المراهقة فيعني السّماح لهم بالتعبير عن آرائهم، وتشجيع الفتيات على تجربة إعداد وجبات طعام جديدة.

إنّ الإنسان المبدع هو الذي يتّصف بالاستقلالية، وهو الذي لا يفسح ولن يفسح مجالاً لأيّ كان أن يفكر أو يتصرّف نيابة عنه. فإذا كنت تريد لأبنائك أن يكونوا مبدعين، فامنحهم استقلالية وحرية معقولة ليفكروا كما يشاؤون، وليختبروا الحياة بأنفسهم، وتجرب طرائقهم الخاصة، والتخلّي عن الطرائق المعهودة إن كانت لا تناسبهم، لأن تكبت الإبداع عندهم لحاجتك إلى إبقائهم معتمدين عليك.

2. **عدم اللجوء إلى تسميات ونعوت:** تتطلّب العملية الإبداعية أن يكون الإنسان مُنفتح العقل على الخبرات الجديدة، وعلى كلّ ما يصادفه، وأن يكون مستعدّاً لارتداد مجالات حياتية غير مطروقة، وهذا يعني توقّف الآباء عن إطلاق تسميات ونعوت على الأطفال، وأن يعزّزوا، ميولهم الفطرية لتجريب أيّ شيء وكلّ شيء معتمدين على نزواتهم ومظاهر الطبيعة بدلاً من ذلك. وهذا يعني التخلّص من بطاقات التسميات والنعوت مثل: الطّفل الأكبر، الأوسط، أو الأصغر، أو الطّفل الذّكي، أو بنت أبيها، أو الجميلة، أو الفوضويّ، الكسول، بطيء التعلّم، بذرة فاسدة، مصرف العائلة، وصمة عار، الحسنة، ماما الصغيرة، المتمرّد، الأنيق، الوسخ، الخجول، الفنان، الرّعيم، أو أيّ وصف آخر يمكن استخدامه. إنّ السّبب في الدّعوة إلى التخلّص من هذه الأوصاف هو أنّ الطّفل المبدع يمكن أن يكون جميع ما ذكر سابقاً في يوم من الأيام، أو لا يكون، فطوال ساعات النهار يمكن للطفل أن يلهو بالكرة أو بالمكعبات، ثمّ يشعر بالكسل، ومن ثمّ يرغب بعد ذلك في الرّسم، ثمّ يلعب

لعبة أخرى؛ أي إنه قد يحسّ بخمول في لحظة من اللحظات، وبطاقة نشاط كبيرة في لحظة أخرى. ويبدو أنّ هذه التعدّدية مهمّة جدًّا للأطفال المبدعين جدًّا؛ أي توافر فرصة تجربة جوانب الحياة كلّها دون تبويبها أو تصنيفها.

ونادرًا ما يطلق الآباء تسمية أو وصفًا على أكثر من طفل واحد من أطفالهم، وتظلّ هذه الأوصاف ملتصقة بمن وُصِف بها على الرغم من محاولات لتغييرها. وعندما يتقبّل الأطفال الأوصاف التي تُلصق بهم، فإنه يستسلمون ويتحولون إلى أفراد غير مبدعين، وهو أمر لم يكونوا يرغبون فيه أصلًا. إنهم في هذه الحالة يستمعون إلى منطقهم الدّاخليّ الذي يقول لهم: لِمَ أقاوم ما دام الجميع ينظرون إليّ على هذا التّحوّل؟ ولن يمضي وقت طويل حتى يجسّد هؤلاء الأطفال التسميات التي أُطلقت عليهم، وسوف تتوقّف عصابات إبداعاتهم عن الجريان، فيحملون هذه الصّفات التي وُصموا بها فعلاً. وعليه؛ فإنّ الإبداع يتحقّق عندما يرى الأطفال أنفسهم قادرين على فعل أيّ شيء، وغير مكبلين بتسمية أو وصف بعينه.

3. التّعوّد على الصّدق والنّزاهة الشّخصيّة: هناك ارتباط قويّ بين الإبداع من جهة والصّدق والنّزاهة الشّخصيّة من جهة أخرى؛ فمن أجل أن يتمكنّ الطفل من تطبيق تميّزه على أيّ مهمة في الحياة، يجب أن تكون لديه ثقة مطلقة في نفسه على أنها إنسان نزيه، موثوق، ويُعتمد عليه، فإذا كان الطّفل صادقًا مع نفسه، فمعدنّد يكون حرًّا في استخدام تلك النّزاهة الشّخصيّة في الحياة وجميع مهامها وتجاربها، أما الطّفل الذي يخادع نفسه، ويكذب على الآخرين، ويعيش حياة زائفة، فسوف يتعامل مع مشكلات الحياة من منظور حاجته إلى إخفاء الخدعة التي اخترعها، ونتيجة لذلك سوف تراه يتصرّف بطريقة تهدف إلى كسب استحسان الآخرين، والحفاظ على استمرارية كذّبه، لأن يكون صادقًا ونزيهًا. لذلك، فإنّ الأطفال الذين يتصرّفون بناء على بعض توقّعاتهم النّفسيّة المصطنعة، يتصرفون بطريقة زائفة. ولا يمكن بأيّ حال تعزيز الإبداع في طفل يسلك درب الرّيف والخداع.

إنّ الطّفل المبدع يحتاج إلى الشّعور بسلام مع ذاته حتى إن وقع في أخطاء، وهو بحاجة إلى معرفة أنّه يطبّق تميّزه في إدارة حياته، وأنّ التّصرّف الاستعراضيّ المصطنع ليس سخيًّا فحسب، بل سوف يؤثّر سلبًا في الإبداع لديه. لذلك، فإنّ صدق الإنسان مع نفسه متطلب ضروريّ في العمليّة الإبداعيّة، ومن ثم يجب أن يتعلّم الأطفال في مرحلة مبكرة أهمية أن يكونوا صادقين مع أنفسهم.

هنا، من الممكن أن تخاطبهم بجمل على شاكلة: ربما تشعر أنك بحاجة إلى أن تخدعني، أو حتى تخدع معلميك، ولكن عليك الالتزام بالصدق مع نفسك. أو أنت الوحيد الذي يعرف هل تبذل أقصى جهدك، وهل أنت راضٍ وسعيدٌ بهذا الجهد. أو في لحظات الهدوء، عندما تكون وحيداً في سريرك، حاور نفسك، واكتشف هل كنت صادقاً معها. وكلما ساندت الأطفال بمساعدتهم على مواجهة أنفسهم بصدق من دون خوف، ومن دون الاهتمام برأيك أو برأي الآخرين، ساعدتهم أكثر على الثقة بأنفسهم. وكلما وثق الطفل بنفسه مع تقدّمه في العمر صار أكثر استعداداً للاستخدام طريقتة الفريدة في كلِّ شأن يتولاه، وهذا ما يميّز الطفل المبدع من غير المبدع. وفي الواقع، فإنّ عمليّة تعليم النزاهة الشّخصيّة تبدأ بكاملها عندما يكون الأطفال صغاراً، وعندما تمتدحهم لقول الصدق بدلاً من معاقبتهم على صدقهم هذا، أو عندما تتوقّع منهم الارتقاء إلى مقولة شكسبير الشهيرة: «الأهم من كلِّ شيء أن تكون صادقاً مع نفسك».

4. عدم خوف الطّفّل من عظّمته: لا يخاف الأطفال المبدعون من قدراتهم وتفوقهم، وهم يتلقون التشجيع على النّظر إلى أنفسهم بطرائق غير مقيدة لهم أبداً. إنهم يتعلمون عدم الإيمان بالأبطال، أو إعطاء أهمية للآخرين أكثر مما يعطونها لأنفسهم. إن الإبداع والمجازفة صنوان، لذا على الأطفال أن يعرفوا منذ الصّغر أنهم يملكون في داخلهم عبقرية وعظمة، وباستطاعتهم أن يجعلوا تلك السمات قابلة للتّفّتح. أما الكيفية التي ينظر بها الطّفّل إلى أبطاله فأمر في غاية الأهميّة في عملية الإبداع؛ فإذا كان يعتقد أنه لن يصل أبداً إلى مستوى شخصيّة رياضيّة أو موسيقيّة، أو أن أيّ بطل أكبر وأقوى منه وأفضل، فسوف يبدأ في الخوف من العظمة الكامنة في داخله، وهنا يأتي دورك بوصفك أباً، في أن تجعل الأبطال يبدون للطفل عاديين، ولكنهم فريدون ومتميزون. والسبب في ذلك أنّ مهمة تربية الأطفال الموهوبين تستند أساساً إلى مساعدتهم على التّفكير في عظمتهم هم، لا أن يعيشوا حلم حياتهم من خلال إنجازات الآخرين حتى لو كانوا أبطالاً بنظرهم. وتعني هذه التّربية أيضاً مقابلة السياسيين، ومديري الشركات، والفنانين، والكتّاب، وأيّ شخص آخر يُعجبون به، ولكن شرط النّظر إلى مثل هؤلاء الأشخاص على أنهم أمثلة لما يمكن أن يحققوه إذا ما اختاروا ذلك لأنفسهم. لذا يتعيّن عليهم رؤية العظمة في داخلهم، والشّعور بالرغبة في تفجيرها وإظهارها إلى السّطح، وأنّ عليهم اعتبار هذه النماذج مصابيح تُضاء لهم ليسيروا على هدي أنوارهم الدّاخلية، لا أن يفترضوا أنّ الآخرين يتفوقون عليهم فطرياً.

ويجب أن يُسأل الطفل الذي يدرس عن المخترعين العظام عما يمكن أن يخترعه في يوم ما، كأن نسأله مثلاً: ما الذي تريد اختراعه؟ هل اخترعت آلة تقلّنا إلى كوكب آخر من خلال إعادة ترتيب جزيئاتنا؟ هل تعتقد إمكانية هذا؟ هل ترى أنك ستخترع في يوم ما شيئاً يخدم البشرية؟ إنني على يقين أن باستطاعتك إنجاز أي مهمة، فأنت ذكي جداً، وذو أفكار نيّرة. إن الحديث مع اليافعين بهذه الطريقة يساعدهم على الشعور بإمكانية أن يكونوا عظماء ومشهورين، وأن الذين سبقوهم لم يكونوا أشخاصاً خارقيين، بل عاديين مثلهم تماماً، وأنهم ليسوا أبطالاً، بل قدوة يمكن الاحتذاء بهم لاكتشاف عظمتهم في أي مجال يختارونه.

5. قوة الإدراك: يتمتع الأفراد الموهوبون بوعي شديد تجاه أنفسهم، وهي ميزة لا يشاركون فيها الأفراد المُصنّفون أنهم غير مبدعين. وفي كتابه الشجاعة على الإبداع *The Courage to Create* يقول الفيلسوف الوجودي الأمريكي رولوماي Rollo May 1909 – 1994: «الانغماس والانهماك والاستغراق مفردات تستخدم عادة لوصف حالة العالم أو الفنان في أثناء تركيزه في عمله، أو حتى الطفل وهو يلعب».

ومهما كان الوصف أو التسمية التي نطلقها عليه، فإن الإبداع الحقيقي يتّسم بحدّة الوعي أو الإدراك المتنامي، أو القدرات الإدراكية الموسّعة. ولذلك، فإن تدريب الأطفال على الجِدِّ والمثابرة في المجال الذي يستهويهم ويثيرهم، وعلى الإحساس بالقوّة أو الرقّة العاطفيّة، كما يقول رولوماي، تعني الشيء ذاته عندما تربّي الأطفال ليكونوا واعين إبداعياً.

عندما تراقب الأطفال وهم يلعبون، ستجد أنهم منهمكون في ألعابهم واختراعاتهم الخياليّة التي يبتدعونها، ويمكن أن تدعم هذا الانهماك بسؤالهم عن قصصهم وشخصياتها الخياليين. إن تشجيعك لهم على تنفيذ تمثيلات ومسرحيات هزليّة، واختراع ألعاب جديدة، ومدحك لهم ولما يقومون به، سيؤدّي إلى تنمية الإبداع لديهم، وسوف يظهر ذلك في محاولاتهم اللاحقة.

أما الأطفال الرضّع، فحاول التجاوب معهم عندما يمسكون دمية، أو يحدّقون في شيء ما، وتحدث إليهم عن الشيء الذي ينظرون إليه، وأثنّ عليهم عندما يتابعون حركة إصبعك بأعينهم، أو شاركتهم في الضحك بصوت عالٍ. وعندما يصبحون أطفالاً دارجين تزداد حدّة طبيعته عقولهم المتسائلة عن كل شيء تقريباً، وكلما زاد مدحك لتلك الحدّة العاطفية زادت مساعدتك لهم على التّفكير والفعل. وفي هذا السياق، يجب أن تشجعهم وتمدحهم وهم يقضون ساعات طويلة في

ترتيب لعبهم وإعادة ترتيبها، أو البحث عن الحشرات في أحد الحقول، حتى وإن كان ما يقومون به متعباً لك. وكلما أعطيت الأطفال فرصة للتركيز دون مقاطعة أو تثبيط، عززت لديهم مكوّناتاً رئيساً في عملية الإبداع.

إنّ الأطفال تحت سن البلوغ يتمتعون بحالة استثنائية من الخيال والحماسة والحدة العاطفية؛ فعلى سبيل المثال، يمكنهم تكوين نوايا خاصة بهم، وتحديد الأدوار المختلفة لكلّ عضو، ويمكنهم كذلك قضاء ساعات ممتعة في كتابة نصّ لإحدى المسرحيات، مركزين في التفاصيل، ومستخدمين خيالهم لإنتاج عمل إبداعيّ. أما المراهقون فينهمكون في جهودهم الإبداعية، ويمكن أن يحولوا التقارير المدرسية أو الرحلات الميدانية إلى خبرة تعلّم. وهم يتحدثون إلى أصدقائهم دون توقف بكثير من الإثارة والحماسة غير المألوفة عند البالغين. إنهم يتخيلون بعض الأوضاع الافتراضية ويناقشونها. لذلك، كلما ازداد حماسهم، وكلما زاد تشجيعك لأعمالهم، زاد تعليمك لهم أنهم رائعون، وأنه يمكن الوثوق بهم باعتمادهم على أنفسهم لتحديد اهتماماتهم. عندما تعزّز هذه الحماسة ولا تنتقدها، حتى لو كانت بسيطة وساذجة، فإنك تعزّز لديهم الاستقلالية في التفكير، وهذا هو جوهر الإبداع؛ الاستقلالية في التفكير بحماسة وبأقصى ما يستطيعون.

6. **الحث على المثابرة والثبات:** عندما ينهمك الأشخاص المبدعون في مشروع ما، فإنهم ينكبون عليه، ويلازمونه حتى استفاد طاقاتهم كلها فيه. ولذلك، فإنّ المثابرة والاستمرارية مكوّنان مهمّان في الإبداع، كأَيّ من المكونات التي ذكرتها سابقاً. إنّ من شأن المثابرة والثبات تمكين الإنسان المبدع من تحقيق أي هدف في الحياة، وهذا الأمر ينطبق عليّ أكثر من أيّ شخص آخر عندما يتعلق بالنجاح الذي حققته في حياتي. إنني أعرف أنّ هناك أشخاصاً أكثر موهبة وتعلّماً مني، ولكنني لم أقابل حتى الآن شخصاً يتمتع بالمثابرة الصّلبة التي أمتلكها في متابعة ما أريد، وأنا مؤمن بشدّة أن لا شيء في هذا العالم، سواء كان موهبة أو عبقرية أو تعلّماً، يمكن أن يحلّ مكان المثابرة والتّصميم، ويتعين عليك عدم نسيان هذا في محاولتك وضع أطفالك على طريق الإبداع.

ويمكنك مساعدة أطفالك في التّعوّد على المثابرة والمواظبة، مع أنّ الرّغبة يجب أن تتبع من داخلهم. وعلمهم عدم الاستسلام والتخلّي عن متابعة الأشياء المهمة لهم، وأنّ المستحيل لا وجود له، وأن يروا قيمة المثابرة في حالة أو مشكلة حتى الوصول إلى حلّها. إنّ الأطفال بأمرّ الحاجة إلى شيء من التشجيع على المواظبة لحلّ مشكلة ما، وإذا تلقّوا هذا التشجيع منك، فسوف يبدؤون

منذ الصغر باتخاذ الإجراءات الفردية التي سيطبقونها في حياتهم لتحقيق أهدافهم. وما أتحدث عنه هنا هو التشجيع المحفز إلى المثابرة، كأن تقول للطفل: استمر في التفكير لفك اللغز، وابتحث عن حلول بطرائق غير معهودة بدلاً من محاولة يتيمة ثم التوقف والانسحاب. أو: إنني متأكد من قدرتك على إيجاد الحل، استمر في المحاولة، وحاول التفكير بطرائق جديدة للوصول إلى الحل. أو: سوف تكون لاعب كرة قدم مشهوراً، أنا متأكد من ذلك. أو: هلمّ نتمرّن على التّحكّم في الكرة بالقدم اليسرى مدة نصف ساعة أخرى، إنني على ثقة بأنك سوف تتقن هذه المهارة في مدة قصيرة. أو: إذا التحقت بدورة للتنس الأرضي فأنا أصرّ على مواظبتك حتى لو أصبحت مملّة؛ إن تأكيدك للعبة طوال مدة الدروس مهم مثل أهمية امتلاك الموهبة التي لديك منها الكثير.

إنّ هذا التشجيع اللفظي المتواصل أمر مهم في تطوير الإبداع عند الأطفال، وعندما يتعلّمون كيفية التمسك بمشروع ما والانهماك فيه، ورفض التخلي عن أي مشروع من اختيارهم، عندئذٍ عليك مساعدتهم على المثابرة على الرغم من أنهم قد يجدون الانسحاب طريقاً أسهل من الاستمرار والمثابرة. وبعد اكتساب مزية المثابرة هذه، فإنهم سيطبقونها لاحقاً على معظم مشروعاتهم في الحياة، وهذا هو الوقت الذي يبدأ فيه شريان الإبداع بالتدفق. لقد اكتشفت أنني إذا ثابرت على كتاباتي، حتى وإن شعرت برغبة في التوقف، فإن التصاقني الحقيقي بها يساعدني على الكتابة بإبداع أكثر من أي وقت مضى، وكلما واصلت عملي أكثر شعرت بمزيد من الارتياح تجاه إنتاجي. وعليه، سوف يخرج الإبداع من أطفالك بصورة طبيعية عندما يمارسون هذه المثابرة في حياتهم بانتظام، وما عليك إلا أن تشجعهم على أن يكونوا فاعلين، وعندئذٍ سوف يظهر الجانب الإبداعي تلقائياً.

7. **استقلالية التفكير:** أن يكون الطفل مستقلاً يعني أكثر من مجرد عدم التصاقه الشديد بوالديه. ولأن الأشخاص المبدعين يفكرون بطرائق فردية تمكّنهم من الإبداع، فإنهم يدركون الكون بأصواتهم الداخلية، ولا يصنّفونه ولا يجزّئونه كي يفهموه. ويتوصّلون إلى أنّ الكلّ مؤلّف من أضداد ظاهريّة، ويعرفون أنّ الكون غير مقسم إلى مجرد ثنائيات؛ حيث اللون الأبيض في جانب واللون الأسود في جانب آخر؛ لذلك فهم يبحثون عن دمج الأضداد الظاهريّة، واستبصار ما وراء التفكير المعتاد عادة. وقد عرّف الفيلسوف والعالم النفسي ويليام جيمس (William James 1842 – 1910) العبقرية بأنها: «القدرة على إدراك الأشياء بطريقة غير مألوفة»، وهذا ما يميّز المبدعين من غيرهم؛ وهو التفكير بطريقة غير معهودة. إنهم لا يكتفون بما تعودّه الآخرون، بل يتوقون إلى معرفة المزيد، ويتساءلون

عن السَّبب مرة تلو الأخرى، فإذا قابلت تساؤلاتهم بنظرة غاضبة أو بتجاهل لأنك لا وقت لديك لمثل هذه الأسئلة، فربما تقضي على أيِّ رغبة في طرح أسئلة في المستقبل، وهذا سيضطرهم إلى البحث عن أجوبة من مصادر أخرى، أو يفقدهم الرِّغبة في البحث عن المعرفة.

على البالغين تشجيع التفكير الإبداعيِّ، والتفكير بطرائق غير مُعتادة، وبناء على ذلك، علِّم الأطفال عدم وِصف الآخرين بتسميات وصفات، بأن توضح لهم أنَّ الناس جميعاً لديهم صفات كثيرة متناقضة، ويبيِّن لهم أنَّ التفكير في السَّؤال، والاعتراف بعدم معرفة الجواب أفضل كثيراً من محاولة تزييفه، وعلمهم أيضاً استخدام عقولهم بدلاً من الاكتفاء بتلقي الإجابة ممن يسمون أنفسهم خبراء، وكذلك استقصاء أي أمر لديهم شكُّ نحوه، ورفض الطاعة العمياء في الحياة.

ولأنَّ التفكير الإبداعيِّ يعني طرح أسئلة طوال الوقت، فإنَّ الأب أمام خيارين: التشجيع أو التثبيط، وإذا أخفق الأب في العثور على جواب لسؤال ابنه، فباستطاعته التعاون معه للتوصل إلى جواب شافٍ. ويتعين على الأب أيضاً أن يعلم أطفاله الشكَّ في كلِّ شيء يُقال لهم عندما يقدم بطريقة قاطعة وجازمة ومسلَّم بها، والتأكَّد من مصادر أخرى. إنَّ أكبر درس يمكن تعليمه للأطفال هو الإيمان بسلامة عقولهم، وهذا هو أحد الشُّروط الأساسيَّة لأسلوب الإنسان المبدع في الحياة.

إنَّ الأطفال الصغار ربما يكرِّرون الاستفهام (لماذا؟) في كلِّ ساعة من ساعات النهار، وعلى الوالدين تشجيع ذلك، والاستجابة له بعبارات وأسئلة مثل: أنت رائع لأنك حريص على معرفة ما لا تعرف. أو: في رأيك، لِمَ لون السماء أزرق؟ أو: في رأيك، أين توجد الجنة؟ وبعبارة أخرى، يجب أن يشجِّع الوالدان تساؤلات أبنائهم، وإعادة المشكلة إليهم لحلِّها، وإذا لم يكن لديك جواب واضح عن سؤال ما فاعترف بعجزك، ثم استقصِ معرفة الجواب معهم كي يتعلموا مبكراً كيفية شحذ عقولهم. وفي مراحل عمرية لاحقة، اطلب إليهم إيجاد وجهات نظر متناقضة، ومن ثمَّ التَّوصُّل إلى الحقيقة بأنفسهم. وكلما تعلَّم الأطفال التفكير بطريقة فضوليَّة، وحبًّا بالاستطلاع، وب عقل منفتح، ومن دون إصدار أحكام سابقة، تمكنوا من توظيف هذا التفكير في التَّوصُّل إلى نظريات وحقائق علمية. وهذا ما يشير إليه الإبداع؛ إنَّه توصل الشخص إلى حقائق علمية بنفسه دون التفكير بطرائق مألوفة.

تلك هي المكونات السَّبعة الرَّئيسة للإبداع. وكلما ساعدت الأطفال أكثر على التَّطوُّر والنمُّو في كلِّ جانب من هذه الجوانب السَّبعة، زادت احتمالات قولك: حقاً، إنَّ طفلي مبدع. وإذا كان طفلك

مبدعاً، فإنَّ السَّبب في ذلك ليس لأنه يحبُّ الفنون، والموسيقى، والأدب، أو الاختراع؛ بل لأنه يتعامل مع عالمه بطريقة مختلفة عن الطرائق التي اعتادها معظم الناس. وقبل الدخول في بعض التفاصيل الخاصة بمساعدة الأطفال على تنمية الإبداع لديهم، سوف أقدم تصوُّري المُختصر لما يكون عليه الطُّفل المبدع الحقيقي وهو يشق طريقه في الحياة. ولربما تدهش من بعض هذه الصفات، ومع ذلك فهي تبدو مشتركة بين أولئك الأطفال الذين يربُّون على أن يكونوا مبدعين.

لمحة موجزة عن الأطفال المبدعين

الإبداع منحى حياة، إنه اتجاه يقودنا إلى مزيد من تحقيق الذات؛ لأنه يسمح لنا بالتعبير عن ذواتنا المتميِّزة في مشروعاتنا الحياتية كلها. إنَّ الطُّفل المبدع ليس هو الذي يتعلَّم كيفية استخدام الحاسوب وهو في الرَّابعة من عمره، ولا الذي يُبدي ميلاً إلى الرسم أو استخدام الأدوات، ولا يعني الإبداع حالة ما قبل الشعور! بل إنَّ كلَّ طفل لديه قدرة إبداع كامنة، وما يحدد أن الطُّفل سيعيش حياة إبداعية هو مدى سماحنا له بتحقيق تلك القدرة، وليس الجينات الوراثية، أو الكروموسومات، أو تاريخ العائلة، أو الوضع المالي للأسرة؛ لأنَّ الإبداع يتخطى هذه العناصر كلها. ومع أنَّ كثيرًا من الأطفال قد يترعرعون وهم يتمتعون بمواهب وقدرات خاصة تفوق مواهب وقدرات آبائهم، فإنَّ الطُّفل المبدع عموماً هو الطُّفل الذي يتلقَّى التَّشجيع من الأشخاص المهتمين الذين يحتكُّ بهم يومياً ليظل مبدعاً طوال حياته، وليس فقط تهيئة الفرصة له ليكون من المبدعين. وسوف تجد في الصفحات الآتية عرضاً موجزاً لصفات هؤلاء الأطفال العاديين والطبيعيين، ولكنهم مبدعون جداً.

من صفات الأطفال المبدعين أنهم يعشقون اللعب واختراع ألعاب جديدة، وهم يجدون متعة كبيرة في رسم أدوار جديدة، وتوزيعها على شخصيات مُبتكرة يؤدِّيها كلُّ فرد في الفريق. إنَّهم يستمتعون بطرح أسئلة عن كلِّ شيء، وحبَّ الاستطلاع لديهم لا حدود له، وهم يبديون - كذلك - اهتماماً بكلِّ حدث يدور حولهم، ويجازفون بتجربة أشياء جديدة بدل الخوف من المجهول. إنَّهم في قمة سعادتهم عندما يُتركون على هواهم وتلقائيتهم، وعندما يُمارسون طرائق جديدة للمرح. إضافة إلى أنَّهم يستمتعون بكلِّ شيء مُعطى لهم ليلعبوا به؛ فخرطوم ريِّ الحديقة نافورة عندهم، وعلبة طعام معدنية تصبح كرة يركلونها ويلهون بها، وأيُّ بيت تحت الإنشاء فرصة لتجربة اكتشاف عالم من الأخشاب، والطُّوب، وخلطة الإسمنت، وأدوات البناء الأخرى وموادّه، وهم يستفيدون من كلِّ شيء مستعمل يقع تحت أيديهم، يصنعون منه سيوفاً ودمى وزينة. إنَّ الأطفال المبدعين لا

يحتاجون إلى جهاز حاسوب أو مذياع أو تلفاز لتسليتهم، بل قد يجدون التسلية في غطاء سرير قديم، أو عصا، أو بعض الحجارة ليبنوا منها خيمة يلهون فيها.

الأطفال المبدعون يسألون (لماذا؟) طوال الوقت، لذا يجب تشجيعهم على ذلك. وهم يثقون بأنفسهم لتحقيق نتائج إيجابية مهما كان المشروع الذي يعملون عليه. إنك إذا سألت طفلة مبدعة أو طفلاً مبدعاً هل باستطاعته قيادة دراجته الهوائية إلى قرية تبعد عن بيته أربعين ميلاً، فسوف يقول: طبعاً، سأحاول ذلك إن سمحت لي. ويُعرف عن الأطفال المبدعين أنهم يملكون في داخلهم قدرات كامنة لا حدود لها، وأنهم مستعدون للمجازفة التي تُطلب إليهم دون خوف من الإخفاق. إنهم يثقون بأنفسهم، وتتبع هذه الثقة من تصديهم لكل شيء يقومون به بطرائق فريدة؛ فهم قد يحاولون القفز عن منصة الغطس من علو ثلاثين قدماً وهم مطمئنون، فما السبب؟ إنه الثقة بالنفس والتأكد من النجاح. وقد ترى ابن الثمانية عشر شهراً يحاول القفز في الهواء على حافة السرير، ويكرّر المحاولة إلى أن ينجح في ذلك، إلى أن يُقال له إن ما يفعله خطر جداً، وإن عليه التوقف عن ذلك. وهم قادرون على العمل حتى ساعة متأخرة من الليل في إعداد عربة، مع بناء منصة لاحتفال مدرسي، وإضافة لمساتهم الفنية إليها، وسوف تجد أنهم يرتدون ملابس الكبار، في حين تعدّ الفتيات مستحضرات التجميل وهنّ يتحدثن إلى عرائسهن، وقد يعملون أي شيء يخطر في ذهنهم.

إن الأطفال المبدعين يطلقون العنان لأفكارهم دون قيود، ولا يكتبونها في صدورهم. ولأنهم لم يتعلموا الحذر والتوجس بعد، فإنهم يجازفون قليلاً، ويوجد لديهم أيضاً حسّ داخلي لا حدّ له لتوقع الذهاب في رحلة، أو قضاء يوم على الشاطئ، أو المشاركة في لعبة كرة قدم، أو حضور حفلة عيد ميلاد، فهم يحبّون الحركة والانطلاق، ويكرهون الجلوس طوال حياتهم متقرجين. إنهم يتميزون بنفاد الصبر إذا كانوا ذاهبين إلى مكان يستهويهم، فتراهم يسألون: ألم نصل بعد؟ متى سنصل؟ هل وصلنا؟ وفي أوقات الانتظار يخترعون ألعاباً وأشياء مسلية لقضاء الوقت. إنهم دائموا الحركة، وذوو عقول نشطة، ويتوقفون إلى المشاركة في مسيرة الحياة لا الاكتفاء بدور المتفرّج ومشاهدتها وهي تتقضي.

وغالباً ما يفضل الأطفال المبدعون التعلّم والعمل وحدهم؛ لأنهم لا يحبّون المقاطعة بين كلّ دقيقة وأخرى. وهم بنظر الآخرين — في الأغلب — غريبو الأطوار، ويمكن أن يصنّفوا خطأ على أنهم من ذوي التحصيل المتدني إن لم نتحدّهم ونشجّعهم. وفي كثير من الأحيان، يراهم الآخرون على أنهم مزعجون ومثيرو مشكلات بسبب أسئلتهم المتكرّرة، ولا يهدؤون أو يجلسون أو يفعلون كما يفعل

غيرهم. ويمكن أن يطلق على الطُّفل المبدع اسم مهرِّج الصَّفِّ، أو الانعزاليِّ، ولكنَّ هذه التَّسميات غالباً ما يطلقها الأشخاص غير المبدعين. إنَّ الأطفال المبدعين يبحثون عن تعدُّد وجهات النَّظر، ولا يكتفون بوجهة نظر واحدة، وهم يحبُّون الكتب، وتسحرهم صور الحيوانات وكلَّ منظر يشاهدونه على التلفاز، وخاصة الإعلانات. وتعدُّ الموسيقى مصدر فرح لهم، وغالباً ما يقلِّدون الكلمات ويرقصون مع اللحن حتى وهم في مرحلة الرِّضاعة. إنهم يجدون الإثارة في كلِّ شيء، ولا يحكمون على أيِّ أمر بأنه سيِّئ أو جيد، إضافة إلى أنَّهم يتابعون كلَّ ما في خارج البيت من طيور، وديدان، وقطط، وكلاب، وأزهار، ورياح، ومطر، وثلج، ولا يبدو أنَّهم يتعبون من التَّجوال في الطبيعة، في محاولة لاستكشاف كنهها، وابتكار تفسيراتهم لكون الأشياء على ما هي عليه. وهم يلهون بكلِّ شيء؛ ولذلك، فإنَّ أياديهم تظل متسخة في الأغلب، ومن الصعب المحافظة على نظافتهم وتهذيبهم، وهم يميلون إلى لعبة تركيب القطع، والمكعبات، والمتاهات، واللعب التي تحفِّز عقولهم على التَّفكير، وهم بارعون في حلِّ الغموض إذا ما تُركوا وحدهم دون قوانين أو قيود. إنَّهم يحبُّون رسم أنفسهم، واختراع قصصهم، والاشتغال بالغراء، ومعجون اللصق، وقصاصات الورق والمواد اللامعة، وكلِّ المواد والأدوات التي تعدُّ من النَّفايات، وفي الحقيقة إنَّ سلة المهملات ليست كذلك بنظرهم؛ إنَّها كنز.

إنَّ الأطفال المبدعين يقرؤون كثيراً الإعداد مشروع يستهويهم، ويرجعون إلى مصادر متنوعة عن الاكتشافات الجديدة، ومع ذلك، فقد تُفاجأ بأنهم يرفضون أداء الواجبات الصِّفيَّة العاديَّة، مثل الإجابة عن أسئلة نهاية الفصل، أو القيام بأشياء يفعلها الناس جميعاً بالطريقة ذاتها. وهم ميَّالون إلى تحدِّي الصعوبات وتعلُّم أشياء جديدة، ولكنهم يفضلون تطبيق إبداعاتهم على مشروعاتهم. وعندما يُعاملون معاملة أيِّ إنسان آخر، فهذا بنظرهم إهانة يشعرون إزاءها بالغضب والسخط. وعلى هذا، دع الطُّفل المبدع يجرب ويطبق حلوله الخاصة به، وعندئذ سوف تجد أمامك طفلاً سعيداً متحمساً. ولكن إذا طلبت إلى هذا الطُّفل الجلوس معتدلاً، والإجابة عن أسئلة ما، والقيام بما يقوم به الآخرون، فستجد أنك أوقعت نفسك في مشكلة كبيرة لم تكن في الحسبان.

أما فيما يتعلق بانفعالاتهم، فإنَّ الأطفال المبدعين كتاب مفتوح؛ لأنَّ عواطفهم تظهر على وجوههم؛ فإذا كانوا غاضبين من الطريقة التي يُعاملون بها، فستعرف ذلك مباشرة، وقد لا ينجحون في كتمان انفعالاتهم أو التَّحكُّم فيها وهم في عمر مبكر، لذلك ستجد أنهم يميلون إلى الصَّراخ والصِّياح وإثارة الفوضى. وبسبب عنادهم، لن تُفلح في تغيير سلوكياتهم لمجرد تلبية رغبتك هذه.

إنهم حساسون، وغير مستعدين للتظاهر وإخفاء مشاعرهم، لذا تجد أنهم يظهرن غضبهم بسرعة، في الوقت نفسه الذي يعبرون فيه عن حبهم بالسرعة ذاتها؛ فالطفلة المبدعة مثلاً، قد تحضنك، وتقوم بسلوكات عدة رائعة لدرجة تجعلك تتساءل عما قمت به لتستحق هذا كله من هذه الطفلة، ولكنها بعد قليل قد ترخي يديها، وتتلفظ بكلمات غاضبة، ثم تركز باكية إلى غرفتها، إن هؤلاء الأطفال فريدون في داخلهم! وعليك أن تتذكر هذه الحقيقة طوال الوقت. إنهم يفكرون بطريقة فريدة ويتصرفون بطريقة فريدة كذلك، وهذه المشاعر أو الانفعالات هي تماماً ما يجعلهم مبدعين. إنهم صادقون داخلياً، ولذلك سوف ترى الدموع تنهمر من عيونهم عندما تؤذى مشاعرهم، في حين ستري الفرح في عيونهم، وفي أيديهم، وفي قفزات أقدامهم، وفي ابتساماتهم العريضة، عندما يحسبون بالبهجة، وستقرأ على محياهم: أنا أحب الحياة.

الأطفال المبدعون غالباً ما يوصفون أنهم غريبو الأطوار، فهم يحبون قراءة الخرائط، ويحلمون بزيارة أماكن بعيدة، وكذلك انتقاء مفردات يستخدمها الكبار من القاموس حتى قبل أن يدركوا معانيها. وهم بارعون في ابتكار أطعمة ذات نكهات جديدة؛ إذ يمكن أن يخلطوا مكونات متنوعة من الموز والخردل والشمام لصنع شطيرة، أو إضافة بهارات (الكاراي) والثوم في طريقة لم تعدتها من قبل. وهم يحبون رواية الحكايات بعد سماع قراءة قصة بصوت عالٍ، ويمكن أن يجمع بهم الخيال إذا ما طلبت إليهم إعداد حبكة معقدة وقصص غريبة رائعة، وكل ما تحتاج إليه مثل هذه القصص مجرد إضافة لمسات لتصبح من أفضل قصص الأطفال بيّعا.

الأطفال المبدعون يحبون الأوضاع والحالات والمواقف الجديدة، ولا يترددون في تجربتها إلا إذا تعلموا التريث والتردد، وهم لا ينجذبون إلى مجموعة أقران محددة، لذلك تراهم منفتحين على المجموعات الفرعية في أحيائهم ومدارسهم، ولا يميزون بين الجنسين، وغير متحيزين ولا متعصبين، وهم كذلك يظهرن نضجاً فكرياً في مرحلة المراهقة نظراً لمعرفتهم بكثير الأفكار، واختلاطهم بكثير من الناس، وهذا هو الذي يحصنهم ضد التعصب، ونتيجة لذلك تجدهم منفتحين على الأفكار والأشخاص دون قيود.

لقد تعلموا من الحياة عدم وجود أي شيء في الإنسان يستدعي كرهنا له، والخوف منه، صحيح أنهم ذوو عقول راجحة، ولكنهم ليسوا مدعورين! إنهم يعرفون أن معظم الناس يخافون ما يجهلون، أما هم فقد توافرت لهم فرصة المعرفة نظراً إلى شخصياتهم المنطلقة المحبة للاستطلاع. وهم

مستعدون وتواقون لاستكشاف كل شيء، فمنذ نعومة أظفارهم حتى مرحلة المراهقة هم عاشقون للحياة، وطامحون إلى التعلّم دون خوف من الإخفاق.

في بعض الأحيان، قد يجرب الأطفال المبدعون أشياء لا تقرّها، لكن هذا التجريب ضروري كي يقتنعوا بعدم جدوى هذه الأشياء في حياتهم. أجل، من المحتمل أن يجرب الطفل المبدع تدخين سيجارة، ولكن ليس من المحتمل أبداً تجريب أن يكون عضواً في عصابة. سوف تحاول الطفلة المبدعة أو الطفل المبدع أن يجرب شخصياً ما يُقال عن التدخين، ولن يقتنع إلا إذا مرّ بالتجربة ذاتها، وعندما يجرب التدخين، ويجد أنّ طعمه كريه ومنفّر، أو أنه غير ملائم، أو خطر، وغير ذلك، فإنه سوف يقلع عنه. إنهم يجربون ويتوصلون إلى أحكامهم عمّا هو صحيح وما هو خطأ لهم بناء على التوجيه والمعلومات التي توفرها لهم، ولكن الأهم هو أن يكون ذلك بناء على حاجاتهم هم لاكتشافه بأنفسهم. وهم، بين هذا وذاك، قد يمارسون سلوكات لا ترضاهم، وقد يخيبون ظنك فيهم أحياناً، وقد يخيبون حتى أمهم في أنفسهم، ولكن يجب أن تُتاح لهم فرصة اكتشاف الحياة بأنفسهم، ولذلك فإنك لن تغيّر من الأمر شيئاً مهما كان حرصك على ذلك.

إنّ الأطفال المبدعين يتعلّمون من أخطائهم بسرعة كبيرة، وهم يعرفون العواقب التي تعترض إظهار ميلهم الإبداعي، ولن، - أكرّر لن - يدمنوا المخدرات، أو ينخرطوا في أعمال إجرامية بسيطة، أو الإساءة إلى سمعتهم؛ لأنهم سريعاً ما يدركون الخطأ الجسيم في إدمان المخدرات، أو الانقياد إلى شخص - لا تعنيه مصلحتهم - ليسيطر على إرادتهم. وفي هذه المعركة بين الخير والشر، سوف ينتصر اندفاعهم الإبداعي للبقاء والسعادة، وستؤتي أكلها الدروس الأخلاقية التي علّمتها لهم. ولكنك لن تستطيع منع شخص مبدع من معرفة سبب الضجة المثارة عن شيء ما، كالإدمان على المخدرات مثلاً؛ لذا دعه يكتشف ذلك بنفسه.

يحدّد الطفل المبدع خياراته، ليس لأنه قد درّب على أقوال مثل: اعمل الصواب. أو الله تعالى يرانا. أو درجاتك أهم منك. بل بناء على رغبته في تحسين ذاته، وتقديره للآخرين. ويهتم الأطفال المبدعون بالاختلافات الموجودة في هذا العالم أكثر من اهتمامهم بمهام تحديد الخطأ والصواب. وهم لا يخشون أن يكونوا مختلفين عن الآخرين، بل يفتخرون بأنهم متميّزون، ولا يعنيهم رأي الآخرين بهم. وعلى الرغم من أنهم حسّاسون جداً، ويتألّمون إذا تعرضوا للتأنيب أو الانتقاد، فإنهم يشعرون بكبرياء وأنفة في داخلهم؛ لكونهم على ما هم عليه وتميزهم عن سواهم.

يبدو أن الأطفال المبدعين لا يعرفون حدوداً لما يمكن أن يثير اهتمامهم، فهم مستعدون لتجربة أي رياضة كانت؛ فتراهم متشوقين لركوب الدراجة الهوائية في أسرع وقت ممكن، وهم لا يترددون في الحديث مع أي إنسان يستمع إليهم، إنهم لا يابهون بالموضة، أو الدرجات التجارية المعروفة. ويمكن أن تراهم مهندمين أو متسخين وفقاً لمزاجهم، ولكنهم لا يقلقون إن لم تكن قصة شعرهم حديثة، أو إن كانت ملا بسهم لا تحمل اسم مصمم أزياء مشهور، وهم يشعرون بحب استطلاع تجاه الحياة. وغالباً ما يطلبون إلى المعلمين والآباء أن يعيروهم الاهتمام والانتباه، وأن يزودوهم بإجابات وإيضاحات؛ فالمبدع لن يقبل تفسيراً مثل: لأنني قلت هكذا، ربما يسكته مثل هذا الرد، ولكنه لن يسكت غضبه من معاملته بهذه الطريقة الفوقية من أناس أكبر منه عمراً وجسماً، ولا يفوقونه في شيء آخر غير هذا.

يتعلم الأطفال المبدعون من أجل اكتساب المعلومات، ومتعة حلّ المشكلات والمسائل، وليس من أجل الجوائز والمكافآت الخارجية؛ لأن حاجاتهم النفسية أهم من ذلك بكثير. وإذا ما انهمك الطفل المبدع في مسألة معينة، فلن يجعله أي شيء تقوله أو تفعله يتخلّى عنها حتى يصل إلى حلّ يرتضيه هو. ولأنهم يتصرفون تلبية لإرضاء حاجاتهم الداخلية، فإنهم لا يعيرون انتباههم لنجوم تلتصق على دفاترهم من قبل معلمهم. وفي الحقيقة، هم يعرفون مدى تقدمهم، حتى وهم في الصفوف الأولى، وغالباً ما يرون لصق النجوم مهمة مطلوبة إلى المعلم أو المعلمة، وليس شيئاً مثيراً لهم. ويمكن للطفل المبدع أن يتعلم من الحارس، أو البواب، أو أمينة السرّ (السكرتيرة)، أو عامل مطعم، بالقدر الذي يتعلمه من المعلم، وغالباً ما يكون صداقات معهم. وينهمك الطفل المبدع في مشروعاته طوال الوقت، ومع أنه قد يراعي إيقاع منحنى معلمه في التدريس، فإنه يستعين بالمصادر الخارجية، ويتقدم بسرعيته الخاصة دون أن يخبر أحداً بذلك.

الطفل المبدع يتمتع بروح الدعابة، وينجح في إضحاك الآخرين، ولكنه لا يلجأ إلى التهرج لإخفاء أي إحساس بالخوف في بعض الأحيان، وهو لا يستهزئ بغيره عندما يكون في مأمن بين رفاقه. وغالباً ما يكون الطفل المبدع الفرد الوحيد في المجموعة الذي يحمي ظهر الغائب، أو الذي يضع حداً لاغتيال الآخرين والسخرية منهم. ومع أن الإخفاق لا يشلّ حركته، فإنه عادة ما يُدهش الآخرين بتجاوزه إخفاقه هذا، من خلال تدارك الخطأ بتصويبه، وعدم تكراره مرة أخرى.

ومن سمات الأطفال المبدعين كذلك مساعدة الحيوانات الضالة. وهم يرون فضائل في كلّ إنسان، لا البحث عن النقائص فيه. إنهم يحبّون المنافسة، ولكنهم يؤكدون في ذلك تفوقهم وليس

هزيمة الآخرين. إنهم يحبون مظهرهم الخارجي، ولا ينتقدون أنفسهم، ويحاولون تحسين هذا المظهر عندما يكبرون. زد على ذلك أنهم لا يصنّفون أنفسهم استناداً إلى طول القامة أو قصرها، ولا إلى لون البشرة؛ بيضاء أو داكنة، ولا إلى معيار البدانة أو النحافة. وهم يحبون تحدي تقدير الذات، مع قناعتهم بأن قيمتهم لا تُحدّد من خلال رأي الآخرين بها، وإنما من جودة تصرفاتهم وشخصياتهم هم. وقد ترى الأطفال المبدعين وهم يستمتعون باللهو والتسلية منفردين، من خلال القراءة، أو الجري، أو محاولة تعلّم العزف على آلة موسيقية، مع أنهم اجتماعيون ميالون إلى حسن المعاشرة والمخالطة. إنهم يحبون الحياة بكل ما فيها، وهم مستعدون لتجربة أي شيء وكل شيء، ولكن فقط إذا وفرنا لهم فرصة الاندماج في مشروعاتهم. وقد يبدو الطفل المبدع متمرداً في نظرك ونظر السلطات المعنيّة، ولكن بصرف النظر عن رأيك فيه، فإنّ شعلة الإبداع ستظل مشتتة في داخله، وسوف يظل مهتدياً بأنواره الداخليّة هذه دائماً. إنّ الطفل المبدع إنسان غامض؛ قد يسبب لك إزعاجات كثيرة، ولكنه سيجعلك فخوراً به.

لن يدهشني إذا فوجئت بأنّ أطفالك يقعون ضمن هذا الوصف للأطفال المبدعين، وكما قلت في بداية هذا الفصل، الأطفال جميعهم مبدعون، وإنّ الأمر عائد إليك باحتضان ميولهم الإبداعية الفطرية وتشجيعها ورعايتها. وعندما تقرأ عن الطرائق التقليدية التي نكبت بها إبداع أطفالنا، وتتتقي بعض الاستراتيجيات التي اقترحتها لك لمساعدتك على تنشئتهم ليكونوا مبدعين، تذكر ما قاله الكاتب والروائي جورج نورمان دوغلاس (George Norman Douglas (1868 – 1952)، وخاصة إذا كنت تريد لهم أن يكونوا مبدعين إلى أقصى حدّ ممكن: «إذا رغبت في معرفة ما يمكن أن يفعله الأطفال، فعليك التوقّف عن إعطاء الأشياء لهم»⁽¹⁾.

بعض الطرائق التقليديّة التي نُعيق فيها - دون قصد - ميول الأطفال الإبداعية الفطرية

من المؤكد أنّنا لا نقصد عرقلة التطوّر الإبداعيّ عند أطفالنا، ولكننا - يا للأسف - نقوم بذلك من خلال بعض الطرائق التي نتعامل بها معهم، وفيما يأتي بعض أساليب التعامل الأكثر شيوعاً التي تُعرقل الإبداع:

(1) ربما كان يعني بالأشياء الألعاب والدمى والأشياء المادية؛ لأنّ الطفل إذا لم يجد هذه الأشياء المصنعة الجاهزة فإنه سوف يخترع ويجد طريقة للاستفادة من الأشياء المتوافرة له مثل العيدان، والحجارة وأدوات المطبخ وغيرها.

- التّشجيع على الاعتماد عليك، وعدم السّماح له بتطبيق حلوله الفريدة على المشكلات.
- تربية الأطفال على أن يكونوا كغيرهم من الأطفال الآخرين؛ أي أن يكونوا إمعة ومجرّد «أعضاء ضمن القطيع»، وأن يتحاشوا كونهم مختلفين عن أقرانهم، وتشجيعهم على التّفكير بطرائق تقليدية معهودة، ومقارنتهم بكل إنسان أو أيّ إنسان آخر عندما يتصرفون بسلوك غير مرغوب فيه.
- إطفاء سلوك طرح الأسئلة لديهم من خلال تجاهل إلحاحهم المتواصل لمعرفة السبب، أو الاستهانة بتساؤلاتهم بإظهار عدم اكتراثك بهذه الأسئلة.
- تعليمهم توخّي الحذر وعدم الإقدام على أيّ مخاطرة.
- عدم تخصيص وقت للتواصل معهم يوميّاً، كالقراءة لهم، ومناقشتهم والإجابة عن تساؤلاتهم.
- تعليمهم الالتزام بالسّطر؛ أي مراعاة القوانين عندما يرسمون، أو يروون قصة ما، أو يلعبون لعبة، أو يفعلون أيّ شيء.
- معاقبتهم على قول الصّدق.
- غرس الاعتقاد لديهم بأنهم عاديون كالآخرين، وأنهم لا يمتّعون بأيّ قدرات أو عبقرية وجعلهم يعتقدون بأنهم غير موهوبين.
- تثبيط الاستكشاف الإبداعيّ من خلال انتقاد جهودهم الإبداعية.
- ألا تكون لهم المثال لشخص يتابع هواياته واهتماماته الإبداعية بحماس واندفاع.
- عدم النّقة بأرائهم لأنك ما تزال تعتقد أنهم أصغر من أن يكون لهم وجهات نظر سليمة.
- المراقبة الدائمة لتصرّفاتهم، والتّدخل في لعبهم من خلال فرض تعليمات وقوانين، وإبداء نصائح.
- التحدّث إليهم بطريقة متعالية وإشعارهم بالدونيّة.

- تزويدهم بعدد كبير من اللعب، والأدوات، ومشاهدة التلفاز طويلاً، وأشياء أخرى كثيرة لإبقائهم مشغولين ليس إلا.
- تحمّل مسؤولية التّأكد من أنهم لا يشعرون بالملل من خلال ابتكار أنشطة لتسليتهم وإلهائهم.
- عدم إعطائهم فرصة الاختلاء بأنفسهم عندما يرغبون في ذلك.
- اتخاذ موقف دائم بأنّ الأطفال مخطئون والبالغين مصيبون في أيّ نزاع قائم، أو اتخاذ موقف معارض لمواقفهم على نحو دائم، وعدم السّماح لهم باتخاذ قراراتهم بأنفسهم، ووضع حلول نيابة عنهم.
- إبقاؤهم داخل البيت، وتحت المراقبة الدائمة.
- إجبارهم على الالتحاق بفرق رياضية في عمر مبكر، والاستمتاع بفكرة أنهم يتعلمون من أجل منافسة الآخرين.
- إجبارهم على الطّاعة دائماً لإرضائك، بدل أن يطوّروا قواعد سلوك خاصة بهم، يلتزمون بها طوال حياتهم.
- تعليمهم العزوف عن اكتشاف الحياة لأنها سوف تلوثهم أو توقعهم في مشكلات ما.
- عدم إطراء اختراعاتهم الغريبة، أو حلولهم الفريدة.
- الانبهار بالتّعزير الذي يحصلون عليه وليس للأنشطة بحدّ ذاتها: مرحي! لقد حصلت على نجمة. أو عظيم! لقد فزت بالكأس. أو رائع! لقد حصلت على أعلى درجة في صفك.
- إلصاق أوصاف بهم، مثل: أنت كبير، كن صلباً، هذا عيب! الرجال لا يكونون! الفتيات لا يفعلن ما قمت به.

مكاسب حرمان الأطفال تطوير إبداعاتهم

تذكر أنك تحقق بعض المكاسب النفسيّة من كل شيء تقوم به في علاقتك مع أطفالك. حاول أن تنعم النظر في التفسيرات أدناه لترى هل ينطبق بعضها عليك. وبعد أن تدرك ما الذي تكسبه من

إعاقة الإبداع عند أطفالك، فلربما تصبح أكثر ميلاً إلى استخدام بعض الإستراتيجيات لمساعدتهم على أن يكونوا أكثر إبداعاً طوال مراحل نموهم. ويتعيّن عليك أولاً أن تفهم سبب تصرفك تجاه أطفالك، قبل أن تتمكن من استثمار الكيفية التي تحدث بها تغييراً إيجابياً. ومثلما يظل أطفالك يسألون (لماذا؟) ويحاولون فهم كيفية القيام بالأشياء، عليك أيضاً أن تطرح السؤال الكبير: لماذا؟ وفيما يأتي بعض المكاسب التي قد تجد الإجابات فيها:

- قد تجد أن من السهل كثيراً تربية أطفالك بهذه الطريقة من أجل تقليص طموحاتهم الإبداعية. وبلا شك، يصعب السيطرة على الطفل الذي يفعل الأشياء بطرائق فريدة، وربما تكون هذه السيطرة هي ما تسعى إليه في تعاملك مع أطفالك، فإذا ما سمحت لهم أن يفكروا بحريّة ويتخذوا قراراتهم بأنفسهم، فسوف يبدوون بتحدي بعض معتقداتك الراسخة، لذلك فإن جعلهم يطيعونك كما تأمرهم أسهل بكثير من التعامل مع كل واحد منهم على أنه فرد مستقل ومتميّز.

- يمكن أن يكون طرح الأسئلة طوال الوقت أمراً مزعجاً، وخاصة عندما يكرّر أطفالك ذوو السنوات الثلاث أو الأربع (لماذا؟) عن كل شيء يرونه، ويمكن أن تريح نفسك عندما تطلب إليهم التوقف عن طرح أسئلة كثيرة، ولن تضطر إلى الاعتراف بأنك لا تعرف الإجابات عن معظم أسئلتهم.

- ربما تعتقد أن تربية أطفال مبدعين مرهق لك جسدياً: الأطفال المبدعون مغمومون بالنشاط والطاقة، وهم يحبّون معرفة كل شيء وتجريب كل شيء أيضاً، وقد تجد أن السماح لهم بمتابعة هواياتهم واهتماماتهم أمر مرهق لك، لأنه لا يبدو لك أنهم يتعبون أبداً؛ لذلك فبدلاً من السماح لهم بمتابعة اهتماماتهم من دونك، فربما يكون من الأفضل لك منعهم المرح حولك، وهذا ينقذك من اجتماع قوتك التي لا يبدو أنك تمتلكها، يسكنهم مؤقتاً. وبدلاً من تغيير نفسك إذا كنت لا تستطيع مجاراتهم، فإنك تجبرهم على أن يهدؤوا ويوقفوا حبّ استطلاعهم. وقد توهم نفسك بأنك لا تجد الوقت الكافي لتنشئتهم على منحى الإبداع.

- ربما تقول لنفسك: «لا أريد لأطفالي أن يكونوا غريبي الأطوار». إن بإمكانهم أن يعيشوا مثلما عشت وعاش كثيرون غيري في هذا الحي. ربما يكون هذا الذي يسمونه الإبداع مفيداً

لذوي المواهب الموسيقية، ولكن ابني مضطر إلى العمل في مصنع ما، ولا حاجة إلى إشغال نفسه بهذا الغباء. بإمكانه تأجيل هذه الميول الإبداعية، وتعلم كيفية اكتساب لقمة عيشه كما يفعل الآخرون في هذا العالم. إن مثل هذا الاتجاه يجعل من السهل عليك منع أطفالك أن يكونوا مختلفين ومتميزين فيما يفعلون، وسوف يكون الأمر على ما يرام بنظرك إذا ما تكيفوا وفعلوا مثلما يفعل الآخرون، وهذا هو المنطق القائل: ما يناسبني ويناسب كل شخص آخر يناسب أطفالنا أيضاً.

• ربما تكون قد أقتعت نفسك بأن تربية أطفالك على منحى الإبداع يعني الفوضىّة والتسبب في مشكلات عدّة إن لم يُضبطوا ليتلاءموا مع من حولهم: إن مثل هذا النوع من المنطق قد ينجح معك في كبح الإبداع لديهم، ولكنه يتناقض مع حقيقة أن أيّ إنسان ينجح في إحداث أمر جديد في العالم أو يسهم في تحسينه، هو إنسان لا يفكر أو يتصرف كأنيّ إنسان آخر. ولكنك قد تقول: لا أريد من ابني أن يغير العالم، وكلّ ما أريده هو أن يتعلم كيف يتدبّر أموره، والأّ يتحول إلى شخص مجنون مثل الذين يسمّون أنفسهم مبدعين جميعهم. ولا شكّ في أنّ مثل هذا المنطق سوف يعطيك التبرير الذي تحتاج إليه لقمع الإبداع.

• ربما توذّ المحافظة على اتكالية أطفالك عليك، وهذا يرضي غرورك بحاجتهم إليك، إضافة إلى أنه محفّز قويّ لإبعادهم عن القيام بأشياء على عاتقهم وبطرائقهم الفريدة، وكلما ازدادت حاجاتهم إليك للتفكير نيابة عنهم، وللحصول على إذن منك، وإنجاز أعمال لهم، زاد شعورك بأهميتك وإحساسك بأنك تقوم بعمل جيد، وربما تعتقد أيضاً أنك لو سمحت لهم بممارسة إبداعهم الفطريّ بحريّة، فمن المحتمل جدّاً أنهم سوف يتعرضون لمشكلات لا حصر لها، ومن شأن هذا التبرير أن يجعلك تبقيهم معتمدين عليك لأطول مدة ممكنة.

• منع الأطفال من تنمية إبداعهم منذ الصّغر أقلّ خطورة لك: فإذا كنت تعرف ماذا يفعلون، وراقبتهم عن قرب، فسوف تبعدهم عن المشكلات المختلفة، لن تقلق كثيراً لأنك تعرف أين هم وماذا يفعلون، وسوف تشعر بطمأنينة لأنهم في مأمن، وكلما ترعرعوا على الطّاعة، كانت مهمة تربيتهم أسهل، وهذا ما تسعى إليه؛ أن تجعل هذه المهمة الكبيرة سهلة إلى أقصى درجة ممكنة.

لقد كانت هذه بعض المكاسب التي تطمح إليها لإبقاء إبداع طفلك عند حدّه الأدنى، ومع ذلك؛ إذا كنت تريد لأطفالك أن يحققوا مستوى عالياً من الإبداع، والوصول إلى أقصى ما يستطيعون الوصول إليه، وأن يعيشوا حياة ناجحة وسعيدة، فعليك الاطلاع على بعض الاستراتيجيات والأساليب المحددة التي قد تستخدمها في علاقاتك مع أطفالك مهما كانت أعمارهم حالياً.

بعض الإستراتيجيات النموذجية لتربية الأطفال على نظام إبداعي منتظم

تذكّر وأنت تقرّأ هذه الإستراتيجيات أنّي لا أتحدث عن إشراف مفرط في التّساهل، تسمح فيه للأطفال بالعربة وسوء الخلق، من خلال ما يدخل عقولهم من أفكار دون ضابط. إنّ الطفل المبدع ليس مدللاً ولا مهملًا، وفي الواقع إنّ الإبداع يعني تعليم الأطفال نوعاً من ضبط الذات حتى لا يكونوا مهذّبين من أجل إرضائك، بل لأنّ هذه هي أفضل طريقة لإدارة أنفسهم في مسيرة الحياة. وكلما ساعدت الأطفال أكثر على تحقيق حياة إبداعية، جعلتهم أكثر قدرة على التعامل مع أي قضية تعترض سبيلهم. والإبداع لا يعني التهور وانعدام المسؤولية، بل يعني تطبيق أفكار شخصية تتسم بالحدّثة على أي مشكلة أو نشاط حياتي دون الاكتراث بما قد يفكر فيه الآخرون.

هناك اعتقاد غير صحيح لدى معظم الناس في أنّهم يتّخذون جمع المال معياراً للنجاح، وهذا منطوق غير سليم؛ لأنّ ما يحدث على أرض الواقع عكس ذلك تماماً. إنّ الأشخاص الناجحين هم الذين يجمعون الأموال، ويعرفون كيف يكسبون لقمة عيشهم في أيّ وقت مهما كانت ظروفهم الاقتصادية أو أيّ ظروف أخرى، والأشخاص الناجحون يصفون مواقفهم واتجاهاتهم الناجحة وشخصياتهم الفريدة على أيّ مشروع في الحياة، وإذا ما جرّدتهم من أموالهم، وبعثت بهم إلى مدينة أخرى، أو حتى إلى بلد أجنبي، فسوف تجدهم على الجانب الإيجابي من معادلة جمع الثروة.

ولا شكّ في أنّ الأشخاص الناجحين دون استثناء مبدعون، وكلما تعلّم الطّفل الاعتماد أكثر على نفسه، استطاع أن يعكس إبداعه على عمله. ولا تفكّر في أيّ لحظة من اللحظات أن على الإنسان خوض معترك الحياة من أجل جمع أموال طائلة، بل العكس هو الصحيح؛ إذ يجب أن يكون ناجحاً في داخله أولاً، ومن ثمّ تأتي الأمور تلقائياً مهما كانت المشروعات التي يعمل عليها. لذا جرّب بعض هذه المقترحات إن أردت رؤية الإبداع يتفتّح في نفوس أطفالك.

- في كلّ يوم، حاول أن ترفع من مستوى صبرك مع أطفالك من أجل أن يتعلموا من منظورهم الخاص، بدلاً من الاعتماد عليك في التفكير والعمل نيابة عنهم؛ إنّ الإبداع

يعني أساساً تفكير الطفل بطريقته الفريدة، وأنا أقترح أن تعدّ إلى العشرة بصمت قبل أن تتدخل في أي شيء يعمله طفلك، ولا تنس أن الأطفال يحتاجون إلى إنجاز الأشياء بطريقتهم الخاصة؛ فإذا رأيت طفل السنيتين يركب المكعبات بطريقة غير صحيحة، فاصبر بصمت، ولا تصححه، وانظر كيف سيهتدي إلى حلّ، حتى إن احتاج إلى دقائق عدة، فهو على الأقل قد حصل على فرصة للقيام بذلك وحده. وعندما يحاول طفل السنوات الأربع ركوب دراجته الهوائية من الخلف لا من الجانب، فلا تحاول إرشاده إلى الطريقة الصحيحة إلا بعد أن يجرب المحاولات كلّها، فربما اهتدى إلى طريقة فريدة تناسبه أكثر من الطريقة المتعارف عليها. وعند محاولة طفلة تبلغ من العمر عشر سنوات ربط شريط حول علبة هدية، ثم يبدو لك أنه ليس على استقامة، فترث قليلاً، ولا تتدخل، ودعها تبتكر طريقة للتصميم، وامتدحها على جهودها. وحين يحاول الشاب ذو الأربعة عشر عاماً أن يكتب موضوعاً إنشائياً للمرة الأولى، فلا تساعده على اختيار الكلمات والعبارات المناسبة، بل شجعه على الكتابة بطريقته الخاصة. وعندما ينشد ابنك أو ابنتك من عمر سبعة عشر عاماً أو يفنيان بطريقة غير متناغمة، بصوت نشاز، فلا تنتقدهما أو تصحجهما، وتذكر أن الإنشاد أو الغناء أفضل من الصمت خوفاً من أن يكون الصوت نشازاً وغير متناغم. لا تجز الأعمال نيابة عن أطفالك، وتدخل فقط عندما يخفقون في الحلّ ويشعرون بالإحباط، أو عندما يطلبون مساعدتك، وأسألهم عندما يطلبون مساعدتك: ماذا تعتقد؟ ما رأيك؟ كيف يمكن فعل ذلك؟ وعندما تقول لهم ذلك، فإنك تشعرهم بأنك تقدر آراءهم وحلولهم، وأنّ لهم الخيار لفعل الأشياء بطريقتهم حتى وإن كانت مختلفة عن طريقته.

- علّم أطفالك أن يكونوا متميزين، لا مخالفين لمجرد المخالفة والمعارضة: إن كلّ إنسان يحاول أن يكون مختلفاً عن الآخرين يظل مقيداً بما يفعلونه، أما المبدع الحقيقي فإنّه يعتمد على الطرائق الأكثر فاعلية له دون الاكتراث بما يفعله الآخرون أو يعتقدونه. وهذه بعض الأمثلة المتعارضة حول طرائق تشجيع الإبداع وتشجيع التّطابق:

تشجيع الإبداع

تشجيع التّطابق

لم لا تكن كالآخرين، وتسلم واجبك في موعده؟ أنت في الواقع تضر نفسك لأنك تتأخر دائماً في تسليم واجبك في موعده، وأنت وحدك من يتحمل العواقب.

شقيقتك لا تزعجني، لِمَ لا تكون مثلها؟
 إنَّك تميل إلى الجدال، وما يحيرني هو ما الذي
 تجنيه من وراء إثارة ذلك؟ هل يمكن أن تفكر في
 طريقة تجعلنا نعيش في انسجام دون شجار؟
 لو نظرت إلى من حولك، فسوف تجد أنك جزء
 من أغلبية.
 لا أحد يشكو سواك.
 هكذا جرت العادة أن نفعل ذلك في عائلتنا.
 ربما لديك طريقة أفضل لفعل ذلك، قل لي
 فكرتك لنجرّبها معاً.
 هلّا تجز المهام بالطريقة نفسها التي يقوم بها
 الآخرون؟
 أفدّر طريقتك بالتّشبيّح بوجهة نظرك.

حاول التّخلّص من التّوجيهات التي تشجّع الطّفل على التّصرّف كما يتصرّف الآخرون؛ فهناك
 طرائق كثيرة لجعل الأطفال يعيدون النظر في تصرفاتهم لمعرفة هل كانت لمصلحتهم أولاً، بدلاً
 من التّوسّل إليهم ليكونوا أفراداً في مجموعات، ويفعلوا كما يفعل غيرهم. وتذكر: ما الذي يمكن أن
 يقدموه إذا كانوا سيتصرفون مثلما يتصرف الآخرون تماماً؟

- اتخذ موقفاً مناسباً بخصوص إصرارهم على طرح الأسئلة وهم صغار، وكن صبوراً
 في الإجابة عنها لتشعرهم باهتمامك الصادق نحوها، وتذكر أنّ السؤال (لماذا؟) لا
 يتطلب جواباً تفصيلياً؛ فمثل هذا السؤال هو لجذب انتباهك إليهم، وشعورهم باهتمامك
 من خلال ردّك ليس إلّا. وتذكّر القصة القديمة عن الطّفل الذي سأل أمّه من أين جاء؟
 فأخذت تسرد عليه عملية الإنجاب بالتفصيل، وكانت قلقة خشية ألا تكون قد أعطته
 الجواب الصحيح، وكانت المفاجأة لها عندما قال لها: أنا أعرف هذه الأشياء كلّها، ولكن
 المشكلة أنّ صديقي قال لي أنه جاء من مدينة كليفلاند، وأنا أتساءل: من أين جئت أنا؟ إنّ
 الأطفال ليسوا بحاجة إلى إيضاحات تفصيلية بقدر حاجاتهم إلى معرفة أنّ طرح الأسئلة
 شيء مشير، ويجب عدم قمعه. وقد كنت أردّ عليهم بعد سؤالهم لماذا؟ أربع أو خمس مرات:
 لماذا برأيك؟ أنا متأكد أنك تعرف الجواب الآن. إنّ من شأن هذا التعامل الطبيعيّ السلس

تشجيعهم على حب الاستطلاع، ولكن إذا تجاهلت استفساراتهم وهم في الصغر فإنهم سيحجمون عن طرح الأسئلة، وهذا ما يقمع العملية الإبداعية في مهدها.

- تذكر أن الإبداع والمخاطرة يسيران معاً، وكما سبق أن قلت في هذا الكتاب، يجب أن تكون طريقتنا في التعامل مع المجازفة عقلانية دائماً، يجب اتخاذ كل ما يضمن سلامة الطفل وحمايته من الأذى، ولكن يجب ألا نربي الأطفال ليكونوا دائماً على الجانب الآمن في كل شيء يقومون به. ولا شك في أن المخاطرة المعقولة تعدّ من مكونات الإبداع. أما الشخص الذي لا يستطيع المخاطرة أو غير مستعدّ لها، فلن يكتسب منحى إبداعياً في مسيرة حياته. إن الأمان يعني أن نفعل ما يفعله كل إنسان آخر، أما الإقدام على المخاطرة فيعني تحدي الأوضاع القائمة عندما يكون من المناسب القيام بذلك، ويعني أيضاً الإقدام على المخاطرة تجربة شيء جديد، وأن يكون الإنسان مبتكراً، وتجريبياً، ومتحدياً للتقاليد القائمة، والغوص في عالم المجهول بين حين وآخر. ويمكن للطالب الصغير أن يتعلم تأدية واجبه البيئي كما يفعل الآخرون من أقرانه، في حين أنك تستطيع تشجيعه ليتحدث إلى المعلم عن تجربة طريقة جديدة لإكمال مشروع العلوم مثلاً. ويمكن للمراهق أن يتكيف ويلتزم بالقوانين المألوفة كلها، حتى وإن كان لا معنى لها، أو أنه سيحاول مقاومتها ومن ثمّ تغييرها.

عندما كنت في قاعدة غوام البحريّة، قيل لي إن على الجندي عدم تحدي السياسة العسكريّة المرعية أبداً، ولكنني وجدت أن من غير المعقول قبول التمييز الممارس على المواطنين من جزيرة غوام في المحيط الهادي الذين كانوا يعملون مع الحكومة الأمريكية. لقد كان يُسمح للمواطنين الأمريكيين القادمين من داخل الولايات المتحدة بالتسوّق في الأسواق العسكريّة، في حين لم يكن يُسمح بذلك للمواطنين الغواميين داكني البشرة، مع أنهم مواطنون أمريكيون، فشاركت في مسابقة لكتابة الرسائل، ونشرت رأيي في هذه القضية، وفي نهاية المطاف، وبعد أن تلقيت تهديدات بمحاكمتي عسكرياً، تغيرت هذه السياسة وتوقّف التمييز. ولولم ألقّ التشجيع من والدتي بالدفاع عن رأيي، وانتقاد ما أراه ظلماً، فلربما ظلت تلك السياسة مطبقة حتى الآن.

ويجب أن يعرف الطّفّل مبكراً أنه سوف يواجه بعض الانتكاسات والصعوبات نتيجة طرح رأيه والدفاع عنه، وأن الأمر سوف ينطوي دائماً على بعض الأخطار، ومع ذلك يجب تشجيع الأطفال وتعزيز هذا السلوك بدلاً من أن نطلب إليهم الاسترخاء في أمان الأغلبية السالبة. وسوف يظهر

الأطفال علامات على رغبتهم لتجربة أشياء جديدة، وللتفكير بطرائقهم الخاصة، وتحدي القوانين التافهة، أو لاقتراح طرائق جديدة لإنجاز الأعمال. وبصرف النظر عن أعمارهم، حاول أن تشجعهم وتمتدحهم لأنهم مغامرون، وساعدهم كذلك على معرفة عواقب تصرفاتهم.

وخلاصة القول؛ إذا كنت تريد لأطفالك أن يكونوا مبدعين، فلا تحاول أن تجعلهم انقياديين وأفراداً في قطيع، ومغردين على أنغام غيرهم.

- خصص مزيداً من الوقت كل يوم للجلوس مع أطفالك والاستماع إليهم؛ وإذا كان لديك أكثر من طفل، فامنح كل واحد منهم دقائق عدة، وإذا كانوا صغاراً جداً، فأرهم كتاباً مصوراً، وقلب صفحاته لدقائق قليلة كل يوم، وتحدث إليهم عن الأشياء التي يرونها في الكتاب. إن الأطفال المبدعين، بلا استثناء، يحبون الكتب، لذا فإن تعريفهم بالكتب يساعد على تطوير إبداعهم مبكراً. أما الأطفال الأكبر سناً، فيمكن أن تمسكهم من أيديهم، وتمشى معهم، وتحدث إليهم، وعندما يحين موعد النوم، اجلس معهم لدقائق قليلة، وتحدث إليهم عما حدث معهم في ذلك اليوم، وعن برامجهم في اليوم القادم، وتحدث معهم عن هواياتهم، واهتماماتهم، وعواطفهم، ومخاوفهم، وقلقهم. ويمكن أن نبدأ بهذه الأسئلة القليلة بطريقة غير فضولية، ولا فوقية بحيث تشعرهم باهتمامك بهم وبأنك تولي أهمية وقيمة لأفكارهم المتميزة الإبداعية: ماذا تفعل في المدرسة طوال اليوم؟ ما شعورك عند تغيير الصفوف في منتصف النهار؟ ماذا تشعر عندما تركب الحافلة أو تمشي لتصل إلى المدرسة؟ من الأشخاص المفضلون لديك في المدرسة؟ لِمَ تحبهم إلى هذا الحد؟ أشعرت بالخوف عندما استدعاك المدير؟ ما رأيك في تعلم عملية القسمة مبكراً؟ هل هي صعبة عليك؟ أتعقد أن أداءك جيد في المدرسة؟ هل تحب اللعب مع ليلي اليوم؟ لماذا تحب لعبة الخروف أكثر من أي لعبة أخرى؟ هل ستأرجح غداً مثلما فعلت هذا اليوم؟ ما الذي تحب فعله أكثر من أي شيء آخر؟ تبدو منزجاً اليوم، هل كل شيء على ما يرام؟ أقلق لأن جدتك في المستشفى؟

تتلخص الفكرة هنا في أن تكون معهم، وأن تصبح متعلماً في حياتهم. دعهم يشاركونك في حياتهم الفريدة هذه، ويعبرون عن آرائهم، وأظهر لهم اهتمامك بهم. إن أسلوب أن تكون متعلماً يجردك من دور الشخصية المتسلطة الخبيرة في إسداء النصائح، ويمنحه لهم. وكلما شعروا

بأهميتهم على أنهم بشر، وأنهم متميزون في داخلهم، زاد احتمال أن يعزوا شخصياتهم المتميّزة التي يتقنون بها بإنجازاتهم الحيّاتيّة.

- **اسمح للأطفال أن يحققوا ذواتهم في أكثر جوانب حياتهم:** لا تشدّد عليهم وهم صغار جداً أن يراعوا الدقّة في رسم الخطوط وهم يلوّنون. اسمح لهم أن يخربشوا ويكونوا رسّامين كما يحلو لهم؛ فالإبداع لا يعني الترتيب، والهندام، واستجداء استحسان الآخرين؛ إنّه يعني أنهم في البداية يخربشون، ولكنهم بعد ذلك سيتقنون مهارة استخدام الألوان وتشكيلها، لذا لا يمكن الحكم عليهم بناء على محاولاتهم الفنيّة الأولى. إنّ المهم هو تهيئة الفرصة للتعبير عن أنفسهم بأي صورة يريدونها، أما عملية التقويم والنقد الحقيقيّ (التي هي ليست أكثر من مجرد مقارنة عملهم بأداء أقرانهم، أو بالمعايير التي وضعها آخرون) فتؤدي إلى كبت الإبداع وعرقلته. ويجب أن نتذكر أنّ الإبداع يعني السّماح للأطفال بالابتكار من منظورهم الخاص، وأن يكونوا أحراراً في استخدام طرائقهم الخاصة في أعمالهم الإبداعيّة. ولا تعدّ المحاولات الأولى مؤشراً على موهبة فنيّة مستقبلية، أو دليلاً على أنهم سوف يحترفون الرسم في مرحلة لاحقة من حياتهم أم لا. وإذا ما شعر الطفل بأنه مقيد، أو مصنّف، فسوف تتوقف محاولاتة من أجل إرضاء أبويه، وإنجاز الأعمال بطريقتهما للحصول على رضاها.

الأفراد المبدعون لا يستقرون أبداً ضمن خطوط الحياة. ولأنهم يفعلون الأشياء بطرائقهم الخاصة فإنهم يبتكرون، لذلك فإنهم يتجاوزون الحدود التي تقيد حرية الإنسان العادي، ويرسمون لأنفسهم الصورة الإبداعيّة كما يتخيلونها. ويجب أن يعرف الأطفال في عمر مبكر أنّك من خلال الثناء والمدح الذي تمطرهم به، لا تستحسن ما يقومون به فحسب، بل هورائع ومثير بذاته، وهذا ما ينطبق على أنشطتهم جميعها. وعليه؛ لا تقيدهم بقوانين وهم يلعبون، بل اسمح لهم بتحديد قوانينهم الخاصة، والتوصّل بأنفسهم إلى اتفاقات مع أصدقائهم وأشقائهم، وشجعهم على التعبير عن أفكارهم كتابة، والآيكتبوا بالطريقة التقليديّة التي عفا عليها الزمن. وربما يعانون نتيجة لذلك بعض المتاعب، ومن ذلك عدم تقبّل الآخرين لأسلوبهم، أو انخفاض معدل درجاتهم، ولكن الكاتب الذي يستطيع أن يكون مبدعاً بكلماته، والذي يضفي حياة على عباراته بطريقة لم يسبق إليها أحد من قبل، هو الذي سيحدث الفرق والتغير في نهاية المطاف. وبالتأكيد يتعين عليهم الالتزام بالقوانين

في اللعب، والكتابة، والرسم، والعمل، وكل شيء آخر في الحياة، ولكن عليهم ألا يعتقدوا أبداً أن تلك القوانين هي التي ستملي عليهم ما يفعلون أو ما يمكن أن يصلوا إليه.

لا يقبل الفرد المبدع أن تقيده القوانين التي تُطبَّق على الآخرين، وهذا ما يجعله شخصاً استثنائياً، وكلما سمحت للأطفال بتحدّي القوانين وتجربة طرائق جديدة وأساليب خاصة بهم، عزّزت لديهم تلك الرُّوح الإبداعية التي أكتب عنها في هذا الفصل.

لا شكّ في أن بعض العقبات سوف تعترض من اختاروا طريقهم بأنفسهم، ولكن كلما زدنا من الثناء على هذا الاختيار وتشجيعه منذ اللحظات الأولى، علّمناهم عدم الاكتراث برفض الآخرين، وألا يجعلوا وجهات نظر هؤلاء تعيق حركتهم. عندئذٍ، سيتعلّمون الثّقة بأنفسهم، وأن يكونوا فاعلين في هذه الحياة لا ناقدين، هناك آلاف التماثيل التي تخلّد المبدعين في التخصصات والمجالات جميعها، ولكن لم أر حتى الآن تماثلاً يخلّد ناقدًا واحداً.

- يجب أن يتربى الأطفال على أصوات قدراتهم وهي ترنّ في عقولهم: إنّ العائق الحقيقيّ الوحيد أمام انطلاق الأطفال المبدعين يكمن داخل أنفسهم، وهم يحتاجون إلى ثقة كبيرة في قدراتهم من أجل تحقيق أيّ هدف يختارونه. والطريقة الوحيدة لمساعدتهم على عدم الخوف من قدراتهم وقوّتهم هي أن نمنحهم مزيداً من التعزيز لتعظيم إمكاناتهم، ولكن عليهم الإيمان بعبقريتهم، في حين عليك مساعدتهم على رؤية هذه القدرة الكامنة في داخلهم. وهذه أمثلة عدة ليتعامل الوالدان مع أطفالهم وتشجيعهم على تجربة هذه القدرة أو الخوف منها:

الإيمان بقدرتهم

إنّك قادر على تحقيق ما تصبو إليه لو صمّمت على ذلك، أعرف أنّ الموضوع صعب، ولكنك أهلٌ لذلك إن أردت.

الخوف من قدرتهم

أنت لم تبذل الجهد الكافي الذي يخوّلك القبول في كلية التمريض، فأقترح أن تبحث عن شيء آخر.

إنَّ درجات اختبار الاستعداد المدرسي متدنية، ولا تؤهلك للالتحاق بالجامعة. درجات اختبار الاستعداد المدرسي لا تعني لي شيئاً؛ لأنني على يقين من قدرتك على التَّفوق في أيِّ موضوع. قدِّم الاختبار لأكثر من مرة إذا احتجت إلى ذلك، وأنا أعرف أنك سوف تحقق ما تريد.

أنت صغير على المشاركة في سباق 10 كم. أعد المحاولة عندما تكون أكبر قليلاً. إذا كنت تعتقد أنك تستطيع أن تشارك في سباق 10 كم، وأنت مستعد للتدرب، فما عليك إلا أن تحاول. لن أفاجأ بما يمكن أن تفعله إذا ما صممت فعلاً عليه.

أشكَّ في قدرتك على اكتشاف علاج لمرض السرطان. إذا كان هناك من سيكتشف دواء للسرطان، فأنا متأكد أنك ستكون ذلك الشخص، فأنت في الحقيقة ذكي ومثابر، وأنا أثق بك ثقة لا حدود لها.

شخصيتك لا تؤهلك لتكون صحفياً، ولكن يمكنك أن تعمل في مجال الإعلان. إن إنساناً يمثل شخصيتك وثقافتك يمكن أن يكون صحفياً ناجحاً، فلا تتوقف عن المحاولة إن كانت هذه رغبتك.

التمثيل مهنة صعبة جداً، ولن تحصل على دور لأنَّ هناك مئات الممثلين العاطلين عن العمل. إذا كنت تحب التمثيل فعليك أن تخوض هذه التجربة، وأعتقد أنك سوف تنجح في ذلك.

- إذا خُيرت بين المدح والانتقاد، فاختر المدح ومارسه كثيراً: ربما تكون قد توصلت من خلال حديثي عن قيمة المديح في هذا الكتاب إلى إدراك أهمية علاقته بالإبداع، فكلما أثبتت على أطفالك أكثر، كان ذلك أفضل، وأبقيت على جذوة الإبداع متقدة في نفوسهم. وعليك إسماع طفلتك الصغيرة من حين إلى آخر عبارة «ما أجملك!».

لقد أثبتت الدراسات أنَّ الأطفال حديثي الولادة يستجيبون للمديح والحنان، وسوف يستنبطون شعوراً بأهميتهم وقيمتهم كلما كبروا، وهو ما يشجع على الاستكشاف الإبداعي طوال حياتهم.

وعندما يعرض أبناؤك عليك رسماً أو موضوعاً إنشائياً، فكّر في المديح قبل الانتقاد، كأن تقول مثلاً: أنت رائعة يا ناديا؛ فمعظم الأطفال في سنّك لا يفكرون حتى في كتابة فقرة واحدة، في حين قمت بكتابة موضوع متكامل، وهذا شيء رائع بحق، أنت تعبرين عن نفسك بصورة جيدة الآن، وأعتقد أنك سوف تبدعين أكثر في مراحل لاحقة، هل ترغبين بإعطائك اقتراحات عن أفكار أخرى يمكن الاستفادة منها؟ امتدحها أولاً، ثم أسألها عن رغبتها في طلب المساعدة في إجراء تعديلات هنا وهناك، بدلاً من تحديد الكلمات التي أخطأت في كتابتها.

تذكّر أنّ المديح يشجع الأطفال على متابعة محاولاتهم الإبداعية، ويزيد من ثقتهم بقدراتهم، أمّا الانتقاد فإنّه لا يؤدي إلا إلى تثبيطهم. لذا عليك تحاشي الانتقاد إلى أقصى حدّ ممكن، وعليك أن تسألهم أولاً هل يريدون هذا أم لا. إنني أذكر معلمة الموسيقى عندما قالت لي وأنا في الصف الثالث: ما رأيك أن تقرأ كلمات تقديم العرض أمام أولياء الأمور بدلاً من المشاركة مع فرقة الموسيقى؛ فأنت لا تملك موهبة موسيقية، ولا أريدك أن تفسد الحفل الموسيقي. وما تزال تلك الكلمات ترنّ في أذنيّ على الرغم من مرور هذه السنين الطويلة، وقد تخلّيت فعلياً عن أيّ اهتمام لتعلّم الموسيقى منذ ذلك الحين. ومع أنّ معلمتي ربما كانت محقة بخصوص القدرات الموسيقية لطالب في الصف الثالث، ولكن لا أحد يعرف ما سيحدث في حياة الإنسان لاحقاً؛ فلقد كان المخترع الأمريكي توماس إديسون يعاني مشكلة في السمع منذ طفولته، ولكنه صنع مشغلاً للأسطوانات الموسيقية في مرحلة لاحقة من حياته، أمّا صاحب النظرية النسبية في الفيزياء ألبرت آينشتاين فقد تأخّر في النطق حتى السنة الرابعة من عمره، ولكن كان لديه الكثير ليقوله في سنّ الرشد، وجعل العالم كلّه يستمع إليه.

إن قدرة الطّفل الإبداعية غير محدودة عملياً، ولكنه قد يتخلّى إلى الأبد عن اهتمامه بمجال من المجالات إذا ما تعرض للانتقاد. وحتى لو لم تظهر على الطّفل أيّ علامات موهبة في مجال من المجالات، فإن عليك إيلاء أيّ شيء يقوم به، ويطلب إليك مشاهدته، اهتماماً كبيراً، وأن تمتدحه كثيراً إذا كنت راغباً في متابعة مساعيه الإبداعية طوال حياته. يضاف إلى ذلك أن الإبداع لا يمكن تصنيفه، فهو اتجاه ومنحى من الحياة، يتعيّن عليك تعزيزه إلى أقصى قدر ممكن.

- أكنت أباً أو أمّاً، لقد ذكّرتك في كلّ جزء من أجزاء هذا الكتاب بضرورة أن تكون مثلاً حياً أمام أطفالك لشخص يستمتع بمساعيه الإبداعية: إن كنت أمّاً فأظهري لهم أنه ليس من الضروري دائماً التقيّد بوصفات إعداد الطعام، وأن بإمكانك إضافة لمستك الإبداعية الخاصة عندما تعدّين وجبة الطعام، أو عندما تمارسين لعبة المطاردة في

الشارع. وباستطاعة الأمّ أو الأب ارتداء الملابس التي تستهويهما، وليس الملابس التي تحمل علامات تجارية، أو أسماء مصممين مشهورين، وأن يخبرا أطفالهما أنّ ما يهم هو الشعور بالرّاحة في هذا اللباس، لا أن يقلّدوا الآخرين في ذلك.

وبإمكانكما، بوصفكما والدين، أن تشجعا أبناءكما على أعمال إبداعية، وتعلّم أشياء جديدة، مثل المشاركة في طلاء البيت، واتّخاذ قراراتهم بأنفسهم، وآلا يجعلوا آراء الآخرين قيدياً لتصرّفاتهم وكيفية عيشهم.

• إن كنت تريد لأطفالك السّير على درب الإبداع فلا تعاملهم وكأنّهم صغار: فإن تحدثت إليهم دون مبالاة، وقللت من شأنهم، وعاملتهم كما لو كانوا غير قادرين على فهم حديث الكبار، فإنك في الحقيقة تعلّمهم الشكّ في أنفسهم. ومثل هؤلاء الأطفال لن يقدموا على محاولات تتطلب شخصية متميّزة. فإذا كان الطّفل يتحدث بطريقة لا يحسن فيها استخدام اللغة، فلا تحاول أن تكرر أسلوبه في الحديث مباشرة، وتحدث إليهم على أنّهم أفراد ناضجون طوال حياتهم، فباستطاعتهم استيعاب أيّ شيء تقوله بطريقة طبيعية وودودة وهزلية، وليسوا بحاجة إلى سماع كلمات مثل: «الواو والنون» وغيرها.

وإضافة إلى ذلك، تجنّب التحدّث إليهم بتعالٍ. إنني ما زلت أذكر معلمة المرحلة الابتدائية التي كانت تتحدث إلينا دائماً في غرفة الصّفّ بهذه الطريقة التي كانت تحبطننا، وتقتل الحماسة فينا، وقد ناقشنا طريقته السّخيفة في الحديث، وكنا نشعر بالدونية في وجودها. لذلك كلما تحدثت إلى الأطفال بنظرة مهينة جعلتهم يشعرون بالإحباط، وأنهم عاجزون وغير راشدين. وعليه، فإن أيّ مراهق أو مراهقة سوف يشعر بالامتعاض إذا ما خاطبناه كما لو أنه طفل لا حول له ولا قوة، وسنجد أنه يفقد الثقة بنفسه. وهذه الحقيقة تطبق أيضاً على الأطفال من عمر 6 – 12 سنة، فهم أيضاً يريدون أن يشعروا بأنهم راشدون، ناضجون، مهمومون، ومبدعون. وإذا خاطبتهم كما لو أنهم أغبياء غير قادرين على فهم لغة البالغين، فإنهم سوف ينطوون على أنفسهم ويبتعدون عنك. لذا: استخدم نبرة اللغة ذاتها مع أبنائك طوال حياتهم كما لو كنت تحدث صديقاً لك، وعندئذ ستفتح المجال أمام تطوّرهم الإبداعيّ.

• إذا كنت ترغب في مساعدة أطفالك على التّطوّر إبداعياً، فامنحهم فرصة اكتشاف العالم دون أن تملأ البيت بالدمى والألعاب، فإذا اشتريت لهم لعبة في كلّ مناسبة، فأنتي

لهم تعلّم استخدام خيالهم الإبداعي؟ اسمح لهم أن يبنوا ناديتهم الرّياضيّ بأنفسهم بدلاً من أن تشتري لهم واحداً مصنوعاً من البلاستيك زهيد الثمن. دعهم يشعرون بمتعة صنع سيوفهم بأنفسهم بدلاً من شراء لعب تعمل بالبطارية، وترسل أشعة إلكترونيّة للقضاء على أعدائهم الافتراضيين. اسمح لهم باختراع ألعابهم بدلاً من أن تشتري لهم ألعاباً يملونها سريعاً. وبعبارة أخرى: امنح أطفالك فرصة استخدام عبقريتهم الإبداعية بدلاً من تزويدها لهم مع تحيات المُصنّع. وفي أثناء قيامك بكل ما ذكر، حاول إغلاق التلفاز ساعات عدة يومياً، وشجع الأطفال على الخروج من البيت، وتعرّف العالم الواقعيّ. أمّا إذا انشغلوا على مدار فراغهم بالأدوات والتسلية المبرمجة، فستتبدّل حواسهم، ويتعلّمون الاعتماد على أشخاص أو أشياء خارجيّة تجلب البهجة والسّرور إلى نفوسهم. إنّ الطّفل الذي يشاهد التلفاز يرى أنه يطرد عنه الملل، في حين أنّه يسبب له الملل. إنّ ما يحتاج إليه الطّفل المبدع هو أن يتعلّم كيف يلبيّ احتياجاته دون إحساس بالسأم. وبالتأكيد إنّ مشاهدة التلفاز مرات معقولة ليس ضارّاً، ولكن إذا عرفنا أنّ الطّفل الأمريكي العادي يقضي وقتاً في مشاهدة الإعلانات التجارية يزيد أربع مرات على الوقت الذي يقضيه في المشروعات الإبداعية، فربما يجعلك ذلك تفكّر في السّماح لأطفالك بالاعتماد على أنفسهم بصورة أكثر. وعلى الرغم من أنّ الألعاب أشياء رائعة، فإنها ليست مصدر الإبداع، بل إنّ قدرة الطّفل على اختراع لعبة بنفسه هي الدليل الحقيقيّ على الطّفل المبدع. أمّا أنت، فحاول أن تكون مبدعاً عندما تشتري الهدايا لأطفالك؛ كأن تشتري لهم الألواح والمكعبات لبناء قصورهم، وأدوات الفن لرسم أشكال مبتكرة، أو شراء الكتب والألغاز التي تحفّز ميولهم الإبداعية، وبهذا فإنك تحدث تغييراً في إبداع الطّفل من خلال قراراتك الشرائية، وعليك والحالة هذه توظيف إبداعك إلى أقصى حدّ عندما تتسوّق لهم.

- لا أعرف، قلها دون خوف ولا وجل، والأهم من هذا أن تعلّم أطفالك أن يقولوا عند الضرورة: لا أعرف، ولكنني سوف أحاول أن أعرف. عندما يكون الأطفال في موقف يتطلب منهم الإجابة عن أسئلة حتى وإن كانوا يجهلون إجاباتها، فإنّهم يأخذون في اختراع الإجابات وممارسة خداع الذات، لذلك علّمهم قيمة أن يقولوا: لا أعرف. فهذا من شأنه دفعهم إلى البحث عن المعرفة والمعلومة. أمّا الأشخاص غير المبدعين فسوف يكذبون ويخترعون حكاية طويلة ليغطوا بها على جهلهم. وكلما سمعك أطفالك مردّداً لهذه العبارة

قلّ الضَّغَطُ عليهم لإعطاء الجواب الصحيح دائماً، وبذلك يقتربون أكثر فأكثر صوب النّهج الإبداعيِّ في حياتهم.

- امنح الأطفال فرصة كافية لاكتشاف الأشياء وحلّ المشكلات في الحياة بأنفسهم؛ فليست مسؤوليتك ملء فراغهم دائماً؛ إنّ مهمتك هي مساعدتهم على فهم الأشياء بأنفسهم قدر المستطاع. ومن المؤكّد أنّك لا تريد أن تكون شخصاً يتكلّ أبناؤه عليه، بل الأخذ بيدهم حتى ينجحوا في التخلّص من الاتكالية، فإذا قالوا لك إنهم يشعرون بالضَّجْر، فاحذر أن تجوز عليك هذه الحيلة، لتحملك مسؤولية تسليتهم والترفيه عنهم، وقل لهم صراحة إنّك غير ملزم بملء فراغهم بأنشطة مثيرة. وإذا نجحت في عدم الوقوع في المصيدة، فسوف تجد أنهم سيبدؤون في ابتداع أمر ما لإشغال فراغهم، وتطوير إبداعاتهم.

وأنا شخصياً لم أشعر إطلاقاً أنّي مضطر إلى اللعب مع أطفالي، ومع أنني أحبّ ذلك، فإن هذا يجب أن يكون خيار الطرفين معاً. لم أقتنع يوماً في الجلوس في البيت ولعب (الدّاما)، مع أنّ زوجتي تقوم بذلك. لهذا فهم يلعبون معها الألعاب المنزلية الدّاخلية كلّها ويتمتعون بذلك، أمّا أنا فأحبّ أن أتصارع مع أطفالي، وأن ألعب الكرة معهم، وأن نقرأ، أو نركب الدراجّات الهوائية، أو الذهاب إلى المطعم معاً، ولكني لا أشعر بأنّ من اللازم عليّ ممارسة ألعاب لا تستهويني لإرضائهم، إضافة إلى أنهم لا يفكرون أبداً في تنفيذ أمور يكرهونها من أجلي. فإذا كانوا لا يحبّون شيئاً ما فإنهم يقولون بصراحة إنّ هذا لا يعينهم، ثم يمضون في حال سبيلهم. لذا فلي الحقّ نفسه الذي لهم.

يجب أن تجلب الأنشطة التّرفيهيّة التي تمارسها مع أطفالك البهجة والسّرور لكم جميعاً، فإذا وددت اللعب معهم، ولكنك لا تحبّ السباحة أو المشي، فعليك اقتراح خيارات أخرى يستمتع الجميع بها، وإن أصرّوا على فعل ما يريدونه هم فشحجهم على ذلك، ولكن لا تجعلهم يجبرونك على فعل شيء لا تحبّه، ولا تتردّد في حتّهم على ابتكار طرائق إبداعية لملء أوقات فراغهم بأنشطة تطرد السأم عنهم بأنفسهم، لا أن ينظروا إليك بصفتك المصدر الوحيد لتسليتهم في الحياة.

- امنح الأطفال حريتهم في الابتكار والتّفكير والتأمّل، أو تنفيذ أي شيء يحبّون القيام به؛ الأفراد المبدعون يحتاجون إلى الخلوّة والخصوصية فلا تسألهم دائماً؛ ما المشكلة؟ أو ما بك؟ أو لمّ لا تشاركنا في هذا؟ أو أنا أمك، بإمكانك إخباري. إنّ طفل السّنوات التّسع

الذي يأتي راکضاً إليك بعد أن جرح ركبته، طالباً مواساته والتخفيف عنه، هو نفسه الذي يسرع إلى غرفته إذا ما أُصيب بخدش بعد ثلاث سنوات، صافقاً الباب خلفه وغاضباً إذا ما أردت مساعدته أو التحدث إليه عن إصابته، لم تقضِ سوى ثلاث سنوات على الحادث الأول، وأنت ما زلت فيها الأب أو الأم دون تغيير، ولكن الشخص الذي تغير في هذه المدة هو الطفل؛ إنه يحتاج الآن إلى الاختلاء بنفسه، والتفكير منفرداً بذاته، والنجاح في الوصول إلى حلول المشكلات بعيداً عن التدخّل غير المرغوب فيه من الأب أو الأم بدافع الحبّ. فإن رأيت مثل هذا المشهد يحدث في بيتك فلا تزعج؛ لأنّ الأطفال لم يعودوا يهرعون إليك لحلّ مشكلاتهم، أو أنّ هناك خللاً ما، وقل: لقد نجحت في عمل شيء صحيح؛ إنهم يتعلمون كيفية حلّ مشكلاتهم بأنفسهم، وهذا ما تعنيه التربية الأبويّة؛ تعليمهم التفكير بأنفسهم ولأنفسهم، والتوصّل إلى حلول مبتكرة بأنفسهم. وإذا حاولت أن تجمع أطفالك، وتصرّ على إخبارك بكلّ شيء يصادفهم، أو تجسست عليهم بتفتيش أغراضهم وهم خارج البيت، فأنت بذلك تنتهك مبدأً أصيلاً من مبادئ التربية الأبويّة السّامية؛ إنّه الحاجة إلى الخصوصيّة، وإلى مكان خاص بهم لا يخضع للتفتيش العشوائي، وما دمت تحاول مساعدتهم على اكتساب حسّ الإبداع الشّخصي، فلا تقسّر حاجتهم إلى الخلوة بأنه رفض لك، بل هو أمر طبيعيّ وصحّيّ وضروريّ لهم.

وحيث إنني قضيت ردهاً من الزّمن في متابعة الإبداع، فإنني أعتزّ بواجبي إلى قضاء وقت طويل منفرداً، إنني أحتاج إلى هذا الوقت للتفكير دون أن يقاطعني أحد، أو يسألني عما أفعل، أو هل كان كلّ شيء على ما يرام. إنني بحاجة إلى الخلوة من أجل التركيز في عملي، وحلّ المعضلات التي تواجهني دون تدخّلات خارجيّة. وقد حاولت أن أفعل ذلك والآخرين من حولي، لكن الأمر لم ينجح معي شخصياً. فإن لم تتوافر لي الخلوة؛ لأفكر، وأكتب، وأقرأ، وأشعر بالإجباط، وأمزق أوراقني، وأبدأ من جديد، ولا أحلق ذقتي – في غياب عيون متطفلة وفضولية – فإنني ببساطة لا أستطيع أن أبداع. ولا شكّ في أنّ أطفالك يحتاجون أيضاً إلى مثل هذه الخلوة، لذا عليك أن توقّر لهم المكان والوقت للاختلاء بأنفسهم إذا ما أرادوا ذلك، ليمارسوا إبداعهم. ولا تقترض أنّ لديهم مشكلة عندما يحبّون أن يكونوا وحدهم، فهذه علامة من علامات نضجهم.

- عندما تمتدح أطفالك، عليك أن تؤكد ما يهمهم بدلاً من تأكيد المكافآت الخارجية. علمهم قيمة السعي لتحقيق تفوقهم بدل السعي للحصول على الميداليات والكؤوس وشهادات التقدير. وإليك هذه المقابلة بين النهجين:

المديح الإبداعية	المكافآت الخارجية
تخيل أنت تستطيع الآن تهجئة خمسين كلمة زيادة على ما كنت عليه في الأسبوع الماضي.	أنا فخور بك لحصولك على أعلى درجة في الصف.
أنت رياضي رائع! لقد أفادك ذلك التدريب كثيرًا.	أنت في المركز الأول، هذا رائع حقًا!
بالتأكيد إنك رائع في أداء هذه الاختبارات، كنت أعرف دائمًا أنك عبقرٍ.	لقد حصلت على أعلى درجة في اختبار الاستعداد المدرسي، هذا إنجاز كبير بحق.
أعتقد أنك فخور بنفسك لأنك لم تتغيب عن المدرسة يومًا واحدًا.	لقد مُنحت جائزة لانتظامك في المدرسة.

يجب أن ينصب الاهتمام على ما يعنيه التحصيل والإنجاز للطفل، وليس على الذي سيفوز عليه، أو على مقارنته بأخرين في المدرسة. إن الأفراد المبدعين يتميزون بأن لهم مقاييسهم الداخلية المهمة لهم، ولا يعينهم إنجازات الآخرين، ولهذا كلما زدت من توكيد ما يعنيه كل نشاط للطفل شخصيًا ساعدته أكثر على تحقيق تفوقه الداخلي. وتذكر أن الطفل الذي يضع نصب عينيه هزيمة طفل آخر ليشعر بالفوز، أو الذي يراقب المنافسين الآخرين لمعرفة أدائهم، هو في الواقع طفل مقيد بإنجازات غيره، وهذا ليس إبداعًا. إنه يتخذ الآخرين معيارًا للنجاحه؛ فإذا تعثر منافسه، فهذا يعني أنه الفاتر. وهذا في واقع الأمر تفكير المخفقين؛ فإذا كان عليك أن تفوز على الآخرين دائمًا، أو أن تكون في المركز الأول بأي ثمن، فسوف يلازمك الإخفاق طوال حياتك؛ إذ لا يوجد إنسان يمكن أن يظل في المركز الأول دائمًا. لهذا فإن هذا المقياس للتتميز الشخصي يجعلنا خاسرين جميعًا.

إن البديل لهذا المقياس هو البحث عن مقاييسنا الشخصية في داخلنا، فيمكنك مثلًا أن تكون منافسًا، وأن تبذل أقصى ما تستطيع من جهد في مجال معين من مجالات الحياة، ولكن لا تحكم على نفسك بأنك خاسر لأن شخصًا آخر تفوق عليك. إن الأفراد المبدعين هم الذين لا يقارنون أنفسهم بالآخرين، بل يتعاونون معهم، ويستخدمون عقولهم الإبداعية بطرائق تناسبهم. ويمكنك أن تشجع

هذا الميل عند الأطفال من خلال عدم التشديد على ضرورة هزيمة الآخرين، وأعطهم الفرصة ليمارسوا رياضاتهم التنافسية دون تدخل من البالغين، وأن يتخذوا قراراتهم بأنفسهم في أثناء اللعب، وأن يحلوا خلافاتهم بأنفسهم بدل أن يحلها لهم الكبار. وبعبارة أخرى، دع الطفل، وليس أنت أو أي شخص آخر ذي سلطة، يختار أعباءه بنفسه، واترك المنافسات الكبيرة الصعبة لمن يرغب في أن يصبح رياضياً محترفاً.

تذكر دائماً أنّ الأطفال المبدعين ليسوا بالضرورة نظيفين ومهندمين، فإذا أصررت على إبقائهم نظيفين، فأنت في الواقع تتجاهل تطورهم الإبداعي؛ لأنهم بحاجة إلى الاستكشاف، واللعب بالتراب والرمل، وفي أثناء هذا النشاط، سوف يصابون بخدوش وكدمات وجروح، وستسخ أيديهم ووجوههم، وما عليك إلا تقبل هذا الواقع بدلاً من تغييره. فمن المستبعد جداً أنهم لا يحبون أن تظل غرفهم نظيفة، ولكنك كلما خففت من الضغط عليهم لتنظيم حياتهم بناء على مبادئك زادت احتمالات اكتسابهم لعادات إبداعية سليمة. إن الإبداع لا علاقة له بترتيب الأشياء ووضعها في أماكنها، وتنظيم الحياة كما لو كانت سجل محاسبة، بل يعني أن يكون الإنسان طليقاً وحرّاً في التفكير والاستكشاف، ومتسلاً بين حين وآخر. إنّه لا يعني الصرامة ولا التنظيم، لذا لا تشدد كثيراً على وجوب أن تكون حياتهم مرتبة ومنظمة، واسمح لهم أن يتصرفوا بتلقائية قدر الإمكان. وعندما تطلب الأم إليهم تنظيف غرفهم فهذا تناقض بذاته؛ فإذا كانت الغرفة هي غرفة الطفل حقيقة، فعليك ألا تشدد عليها، وأن تترك للطفل الخيار في ترتيبها، فإذا لم تشاهد الصراخ تهرول من تحت باب الغرفة، فليس هناك مشكلة صحية. لذلك اترك غرفة الطفل كما هي غرفة طفل! إن غرفة الأطفال هي فضاءات إبداعاتهم، وكما أنك لا تحب أن يقول لك أحد كيف ترتب غرفتك وتعيش فيها، فإن لهم هذا الحق أيضاً، وعندئذ سوف توفر على نفسك شجارات كثيرة إذا ما عودت نفسك إغلاق الباب وتجاهل الفوضى. وفي المحصلة، إذا كانوا أطفالاً استثنائيين، فلم تفرض عليهم أن يعيشوا في غرفهم بالطريقة التي تريدها؟

لقد قدمت لك في الصفحات السابقة بعض الأفكار لمساعدة الأطفال على الارتقاء بقدراتهم الإبداعية، وإذا ما تذكرنا أنّ الإبداع اتجاه من الحياة، وأنه شيء عصي على التعريف، فبإمكانك أن تفعل أشياء كثيرة لمساعدة أطفالك على السير في هذا الطريق. إن الإبداع شيء لا يمكن قياسه أو تصنيفه أو تقويمه من قبل أي إنسان آخر؛ لذا عليك أن توقف المحاولات الخارجية لتحديد مقدار

الإبداع وتقويمه عند طفلك. وإليك هذا الاقتباس مما قاله الموسيقار وولفغانغ أماديوس موزارت الذي توفي عن 35 عاماً (1756 – 1791) وكان يعدّ من أشهر العباقرة المبدعين في تاريخ الموسيقى:

«عندما أكون على طبيعتي، وأخلو إلى نفسي تماماً، أوفي الليل عندما يجافيني النوم، تتدفق أفكارى بغزارة. أما كيف تأتي هذه الأفكار ومتى، فلا أعرف. إنني لا أستطيع إجبارها على الإتيان».

تذكّر هذه العبارة «عندما أكون على طبيعتي» لأنها تعني جوهر كل ما كتبتة في هذا الفصل. ولا شكّ في أنّ إبداع الأطفال الذين يُسمح لهم بالتصرّف على طبيعتهم تماماً سوف يشع مثلما تسطع شمس الظهيرة.

